



الجامعة الإسلامية - غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب-قسم اللغة العربية
تخصص الأدب والنقد

الأرض في أدب غريب عسقلاني القصصي

"دراسة تحليلية"

إعداد الطالبة

عزيزة محمد مصطفى عبيد

إشراف الأستاذ الدكتور

نبيل خالد رباح أبو علي

أستاذ الأدب والنقد بالجامعة الإسلامية - غزة

نائب رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطيني - غزة

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب والنقد

1433هـ - 2012م



﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ
وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾

[الإسراء : 80]

إهداء

إلى أرض وطني المجروح دائماً.. فلسطين

إلى روح أبي.. رحمه الله

إلى أمي الحبيبة.. أدام الله ظلها عليّ

إلى أجمل رابطة في حياتي.. إخوتي وأخواتي

إليهم جميعاً..

أهدي هذا البحث.

شكر وامتنان

الحمد لله رب العالمين، الذي مَنَّ عَلَيَّ بالتمكين، ووفَّقني لإتمام هذا البحث بفضلِهِ وكرمه، من حق الوفاء عَلَيَّ أن أتقدم بالشكر إِلَيْكَ أستاذي الفاضل/ الدكتور نبيل خالد أبو علي - أمتعنا الله به - والذي تفضَّلَ بقبول الإشراف على هذه الرسالة، وقد منحني من وقته وعلمه وخبرته الشيء الكثير، فقد فتح لي باب بيته ومكتبته، وأمَدَّنِي بالكتب والمراجع، فكان ناصحاً وأميناً وعوناً بعد الله تعالى.

لِمِثْلِكَ اليوم أفق متواضعة لأنسب الفضل لأهله، وأرفع الهام بك إجلالاً بتعرّقي إِلَيْكَ، أدامك الله منارة علمٍ يُهتدى بها، وصرح معرفةٍ لكل طلبة العلم.

شكر وتقدير

أرى لزاماً عليّ أن أتوجه بالشكر والتقدير لكل الذين كان لهم الفضل في إتمام هذا البحث.

أشكر أُمي الفاضلة شكراً يدوم ولا ينتهي على دعواتها المباركة، والتي كانت نبراساً يضيء لي طريق العلم، ويذلّ لي الصعوبات، راجية من الله أن يُطيل عمرها.

والشكر موصول إلى الدكتور/ سعد العزايزة أستاذ النقد والأدب العربي، الذي لم يتوان في إسداء كل ما هو مفيد من أجل إتمام هذه الدراسة، وفي تصحيح وتقويم بعض الكلمات والعبارات، أدام الله عليه نعمة الصحة والعافية، وبارك الله في عمره.

كما أشكر الإخوة العاملين في مكتبة وزارة الأوقاف، وأخص بالذكر الأستاذ/ عبد اللطيف أبو هاشم/ مدير دائرة المخطوطات والآثار؛ لمساعدته في جلب الكتب والمراجع غير المتوفرة في المكتبة، فبارك الله فيهم.

والشكر للأستاذ/ غريب عسقلاني لما قدّمه لي من مساعدة من خلال توفير المجموعات القصصية والروايات، والشكر موصول لمن ساعدني في الذهاب إليه والتعرف عليه الدكتور نبيل خالد أبو علي.

ولا يفوتني أن أشكر أختي (أمل ومنى) اللتين شاركتاني عناء البحث عن المراجع فبارك الله فيهما.

كما لا أنسى أن أتقدم بشكري وعرفاني إلى صديقتي وزميلتي، الأستاذة/فايزة حلس، والأستاذة/ نسرين البغدادي لقيامهما بتدقيق ترجمة الملخص باللغة الإنجليزية، وكذلك زميلتي وسام جبر لقيامها بتوفير ما أحتهجه من كتب، فلهن كل الشكر والامتنان.

ولا أنسى أن أرفع شكري وتقديري إلى الجامعة الإسلامية ممثلة بعمادة الدراسات العليا وكلية الآداب؛ لرحابة الصدر لطلاب العلم، وفق الله القائمين عليها وألهمنا وإياهم الرشد والسداد.

فلهم جميعاً كل الشكر والثناء والتقدير، وجزى الله الجميع الخير والنجاح في أعمالهم.

المقدمة

مقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ. نَسْتَعِينُ بِهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ لِمَا يُقَرِّبُنَا إِلَيْهِ، وَنُؤْمِنُ بِهِ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى أَفْضَلِ مَبْعُوثٍ لِلْعَالَمِينَ، وَأَوَّلِ مُشَفَّعٍ فِي يَوْمِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبَعَ هَدْيِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَبَعْدَ،

إن المعاناة التي عاشها الفلسطيني ومازال، جعلت للمكان في القصة الفلسطينية خصوصية تميزها في الآداب الأخرى، إذ برز بصورة جلية بعد نكبة فلسطين عام 1948، وما تلاها من نكبات حلت بالفلسطيني في الوطن والشتات؛ فأصبحت الأرض بصورة خاصة تُشكّل هاجسه الأول، وتحوّلت إلى جزء لا يتجزأ من كيانه، وظلت حاضرة في تفكيره ووجدانه وحياته؛ فالأرض هي ذلك التعيّن المكاني لجماعة من الناس، بتفاعلها مع الإنسان تكتسي بمزيد من الدلالات والمعاني، تارة يسقطها الإنسان، وتارة تسقطها الأحداث في علاقة تبادلية.

وتفيض الأرض بالقيم حتى أنها تتجاوز القيم المادية لتأخذ طابعاً روحياً وجدانياً فترتبط بقيم الشرف والكرامة وغيرهما، بحيث تصبح غائرة في الذات الفردية والجماعية، وبالتالي تعلق وترتفع قيم الوطنية.

كما يُعد " الانتماء" الذي هو من أكثر المصطلحات ذات الصلة بموضوع "الأرض" وعلاقتها بالمقاومة وأدبها؛ نظراً للدلالة المباشرة الشائعة، وهو ما يعني الوفاء والإخلاص والمشاركة الإيجابية... إلخ.

والقضية الفلسطينية هي قضية شعب سُلبت منه أرضه، كان من الطبيعي أن تصبح "الأرض" موضوعاً ورمزاً في الإبداع الأدبي في الانتفاضة.

ولقد جاء جيل فرض وجوده الأدبي على الساحة الإبداعية القصصية والروائية الفلسطينية، ولم ينل من الدراسة لأعماله ومن الإعلام ما يستحقه، وهو غالباً ما ارتبطت أعماله بتجارب "الترانسفير" التي سبقت الانتفاضة الأولى "انتفاضة الحجارة"، ثم كانت الأعمال المتلاحقة للانتفاضة الأولى، التي اشتعلت في عام 1987م، ثم الثانية في عام 2000م، تلك التي توافقت واختلقت مع اتفاقية "أوسلو"، وعرضت الحياة الجديدة تحت ظل السلطة الفلسطينية، التي كان لها الأثر في الأدب الفلسطيني، إذ عبّرت عن تجذّر الفلسطيني في أرضه رغم كل محاولات الاقتلاع والتهجير.

ومن أعلام هذا الجيل، عبد الله تايه، وبشرى أبو شرار، وغريب عسقلاني الذي كتب عن ذات جريحة عاشت لحظة اللجوء الأول، وهي ترزح الآن تحت الحصار الظالم المفروض على شعبنا الفلسطيني في جميع المناطق، وبهذا يكتب عسقلاني بمداد صارخ عن هذه الفئة (اللاجئين) التي اقتلعت من أرضها عنوة، وللمكان في الكثير من أعماله حضور واضح، بحيث يُعد الحيز الذي تتحرك فيه الشخصيات، والذي تتشكل فيه الأحداث وتتداخل وتتصارع، وعلى الرغم من التفات عدد من الباحثين إلى جوانب مختلفة من أدب الانتفاضة، فإن أدب غريب عسقلاني لم يحظ بدراسة شاملة عن أبعاد مكوناته، وهو بحاجة إلى دراسة متعمقة تحاول الكشف عن هذه الأبعاد.

ومن هنا تأتي هذه الدراسة التي تسعى إلى تحقيق جانب من تلك الغاية.

وانطلاقاً من خصوصية المكان في الرواية الفلسطينية، برزت أماكن متعددة في أعمال غريب عسقلاني تكشف عن حياة الفلسطيني، فالمخيم، والشارع، والبحر... إلخ تكشف عن تحول تلك الأماكن إلى تعبير رمزي عن القضية الفلسطينية، وشواهد على استمرارية العطاء والثورة والتمرد والتصدي للطغيان الجاثم على صدرها ومن حولها، وبقائها مراكز إشعاع للأمل في التحرر والخلص.

وقد رأيت أن (المنهج المتكامل) هو أنسب المناهج للوصول بهذه الدراسة إلى غايتها، فاعتمدت **المنهج التاريخي** في عرضها للأحداث التاريخية والمعارك التي حدثت في أرض فلسطين، بدءاً بالمؤامرات التي حيكت لتقسيم فلسطين، وانتهاءً بالانتفاضة ومحاصرتها باتفاقية أوسلو.

كما اعتمدت **المنهج الفني التحليلي** في قراءة النص، والتعمق في دلالاته الموضوعية وأبعاده الفنية.

كما رأيت أن أبتدئ البحث بالتقديم لموضوعه عبر مقدمة استعرضت موضوع البحث، وبواعثه ومنهج البحث، إضافة إلى تمهيد، والذي أتناول فيه الأرض التي هي محور الصراع وسبب النعيم والشقاء، وثلاثة فصول:

في الفصل الأول تناولت الأرض في أتون الصراع، حيث الأرض الفلسطينية في سجل الحضارة والتاريخ، والأرض قبل حلول النكبة وبعد حلولها، إضافة إلى أرض الشتات والمخيمات.

وخصص الفصل الثاني لدراسة الأرض من خلال دلالتها الرمزية المتمثلة في العرض والعتاء والذات والأم والخيلة، ودلالات أخرى.

ويهتم الفصل الثالث بدراسة الأرض والتقاليد الفلسطينية، مثل: المواسم وتقاليدها، والأفراح والأفراح، والأعياد والمناسبات، إضافة إلى المهن والطقوس الشعبية. ثم "كلمة لا بد منها" تحدثت فيها عن القيمة الفنية والأدبية لنتاج غريب عسقلاني القصصي.

ورصدت الخاتمة أهم النتائج، وثبتت بمصادر الدراسة ومراجعتها.

وأخيراً، من حق الوفاء علي أن أتقدم بالشكر لكل مَنْ قَدَّم النصح والإرشاد والمساعدة في إتمام هذا البحث، والذي أرجو من الله أن ينفع به، وأن يجعله لبنة صغيرة في صرح الدراسات التحليلية في فن القصة.

وأخص بالذكر أستاذي الموقر الأستاذ الدكتور/ نبيل خالد أبو علي، الذي منحني من علمه وجدته وثقته الشيء الكثير.

كما أتقدم بالشكر للأستاذين الموقرين، عضوي لجنة المناقشة الذين لم يتوانا لحظة عن تقديم كل ما هو مفيد، وأشكرهما على تفضلهما بقبول مناقشة هذه الدراسة، وإسداء النصح لي في استكمال ما فاتني من ضعف أو قصور:

الدكتور/ محمد إسماعيل حسونة

أستاذ الأدب والنقد بجامعة الأقصى.

الدكتور/ كمال أحمد غنيم

أستاذ الأدب والنقد بالجامعة الإسلامية.

وبعد،

لا أزعم أنني بلغت الكمال في هذه الدراسة، فهي جهد المقل، وغير منزهة عن النقد الهادف والبناء، وأرجو من الله أن تكون خطوة في سبيل ما ننشده لأدبنا وتراثنا من كمال، وأسأل المولى جل وعلا أن يجزي الجميع عني وعن العلم خير الجزاء، وأن يلهمنا الصواب في جميع أعمالنا فهو على كل شيء قدير.

التمهيد

تمهيد

الأرض محور الصراع، وسبب النعيم والشقاء

لفلسطين مكانة كبيرة في القلوب؛ فهي الأرض المقدسة التي بارك الله فيها وحولها عندما جعل الرباط بينها وبين الحرم المكي الشريف آية من آيات الله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾⁽¹⁾.

إن فضل هذه البقعة التي وجد فيها بيت المقدس يعود إلى أحقاب ضاربة في القدم، ففيها نشأ ومات الكثير من الأنبياء والرسل، وكانت مهبطاً لكثير من الرسالات والوحي، وبها جرت أعظم أحداث التاريخ القديم.

فلسطين، هذه الكلمة الساحرة بمدلولاتها المختلفة، الأرض، والشعب، والتاريخ، والحضارة، والرسالات، والصراعات، ولكل مدلول فيها عدة تشعبات تملأ كتباً ومجلدات عديدة، ولقد قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾⁽²⁾، وكذلك عندما هاجر إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الشام، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَنَجِّنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾⁽³⁾.

لقد كانت فلسطين مطمعاً لكثير من القوى، ومكاناً للصراع بين العديد من الدول الاستعمارية؛ لما تتمتع به هذه الأرض الطيبة التي حباها الله تعالى بكل الخيرات والبركة الإلهية، وطبيعتها الخلابة، وموقعها المميز بين دول العالم، فكانت عرضة للغزوات المختلفة التي عصفت بها من كل جانب، وتعاقب عليها الخلافة التركية والاحتلال الفرنسي والبريطاني، انتهاء بالاحتلال الصهيوني، وسقطت فلسطين بعد أن باعها العرب جُبناً، وأعطاهم الإنجليز في وعد مشؤوم، وشردها كثيرون، وبقي العديد من أبنائها يُصارع الصهاينة حتى اللحظة، إنها حقبة من الزمن المظلم لاحتلال طويل.

وقبل الخوض في تفاصيل هذه الأحداث في العصر الحديث، والتي سأتناولها تباعاً، أود الإشارة إلى الحقب المختلفة لتاريخ فلسطين، والتي أبدأها بـ:

(1) الإسراء: 1.

(2) المائدة: 21.

(3) الأنبياء: 71.

الحقبة الأولى: منذ ما قبل التاريخ المدوّن وبداية الهجرة لفلسطين، وإقامة الكنعانيين فيها، مع إقامة أول حضارة في التاريخ.

لقد برزت أهمية موقع فلسطين منذ أقدم الأزمان، وسكنها الإنسان منذ أقدم العصور، ويشهد تاريخ فلسطين أن وضعها الجغرافي، وصلتها الحميمة بالأراضي المجاورة حدّداً على مر الزمن تطورها ومصيرها. لقد كان مصير فلسطين دوماً مرتبطاً بأوضاع الجزيرة العربية ومصر وسوريا والعراق⁽¹⁾.

ولقد تعرضت فلسطين في أواخر الألف الرابع، وأوائل الألف الثالث قبل الميلاد لموجة عربية سامية كبيرة عُرفت باسم الأمورية الكنعانية، حيث نزلت بلاد الشام، واستوطنت ساحلها وجنوبها الغربي، أي: فلسطين⁽²⁾.

إن القبائل الكنعانية جاءت فلسطين واستوطنتها، وزرعت أرضها وبنت فيها القرى، وهي مرحلة طويلة استمرت زهاء ألفين من السنين⁽³⁾.

أما الحقبة الثانية، فهي بداية الأطماع الخارجية، والتي تتمثل في "غزوات الحيثيين من جهة، والمصريين من جهة أخرى، أي منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد... وفي القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، عادت فلسطين من جديد مسرحاً للغزوات الخارجية، فتعرضت هذه المرة للأشوريين الذين خضعت لهم سنة 732 ق.م.، وللمصريين... سنة 608 ق.م."⁽⁴⁾.

لقد تعاقبت على فلسطين عدة حضارات وأقوام منذ استئصال العبرانيين منها، وهذا ما تمثله الحقبة الثالثة، بيد أن "سيطرة الشعوب الغربية، واليونانيين، والرومان، على امتداد عشرة قرون، لم تخلّف أثراً يُذكر في الحياة الخلقية والمدنية لسورية الطبيعية، ومن ضمنها فلسطين"⁽⁵⁾.

(1) تاريخ فلسطين الحديث، عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط10، بيروت، 1990، ص13.

(2) انظر: السابق، ص13.

(3) القدس، عبد الحميد الكاتب، دار الشروق، (د.ط) القاهرة، (د.ت) ص161 بتصرف.

(4) فلسطين (الشعب والحضارة والتاريخ السياسي)، بيان نويهض الحوت، دار الاستقلال، ط1، بيروت، 1991، ص56.

(5) الانتفاضة الفلسطينية الكبرى، عبد الهادي النشاش، دار الينابيع، دمشق، 1994، ص24.

وتمثلت الحقبة الزاهرة في الفتح الإسلامي والحضارة الإسلامية المزدهرة، حيث "كان ظهور الدعوة الإسلامية، وتحقيق وحدة القبائل العربية في الجزيرة العربية على يد الرسول العربي العظيم محمد - صلى الله عليه وسلم - إيذاناً بانهيار جيوش الرومان وحصونهم في جميع المناطق المجاورة للجزيرة العربية. وفي عام 636م رُفِع علم العرب المسلمين على بيت المقدس"⁽¹⁾.

ودخل المسلمون في عهد عمر بن الخطاب بالصلح مع أهل القدس، حيث "سار عمر بن الخطاب إلى القدس، فأنفذ صلح أهلها، وكتب لهم به وكان فتح القدس في سنة 17هـ"⁽²⁾.

في ظل الدولة الإسلامية "حكم المسلمون فلسطين في ضوء الأحكام الإسلامية السامية التي لا تُفرِّق بين عبد وعبد، فالكل عباد الله، ولا تضطهد غير المسلمين... والحقوق التي ينتفع بها أهل الذمة في الإسلام لا يمكن أن نتصور أن الأقليات تمتعت بها في ظل أي دولة من الدول"⁽³⁾.

ولقد تعطر تراب فلسطين بدماء الكثير من الصحابة حيث "وارى ثرى فلسطين ألوفاً من صحابة الرسول وتابعيهم، أشهرهم، أبو عبيدة قائد الجيوش الإسلامية التي فتحت فلسطين... وفي ظل الإسلام شهدت فلسطين الانتعاش والازدهار؛ فكثرت فيها المعاهد العلمية والدينية، وأنجبت العديد من العلماء والمفكرين والقضاة والقادة العظام"⁽⁴⁾.

ومع مجيء الأمويين نالت فلسطين بشكل عام وبيت المقدس خاصة، اهتماماً خاصاً لأسباب دينية وسياسية، لقد أضفت حرمة المدينة على الأمويين مكانة إسلامية عظيمة، وإنه ليس من قبيل الصدفة أن غير خليفة من خلفائهم أخذ البيعة في القدس، فكان معاوية يَعْلَم حق العلم ما كان لبيت المقدس من أهمية. وفي أثناء خروجه على عليّ تعاهد هو وعمرو بن العاص في بيت المقدس"⁽⁵⁾.

(1) تاريخ فلسطين الحديث، عبد الوهاب الكيالي، ص 18.

(2) فتوح البلدان، البلاذري، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع، المعارف، (د.ط) بيروت، 1987، ص189.

(3) تاريخ فلسطين القديم، ظفر الإسلام خان، دار النفائس، ط3 بيروت، 1981، ص159.

(4) تاريخ فلسطين الحديث، عبد الوهاب الكيالي، ص19.

(5) انظر: القدس في الفترة الإسلامية الأولى، عبد العزيز الدوري، مطبعة الجامعة الأردنية، (د.ط) عمان، 1992، ص135.

وتبع خلفاء معاوية موقفه وسياسته تجاه فلسطين والمدينة المقدسة بنشاط، فـ"كان عبد الملك بن مروان، أول الخلفاء الذين صرفوا للعمران اهتماماً بالغاً؛ فقد أعاد بناء عسقلان التي دمرها البيزنطيون... وكانت قمة الأعمال العمرانية في عهده بناء مسجد الصخرة المشرفة، والمسجد الأقصى المبارك الذي أتمه من بعده ابنه الوليد"⁽¹⁾.

لقد أصبحت فلسطين جزءاً من الدولة العباسية بعد أن "انهارت الخلافة الأموية في دمشق عام 732م / 132 هـ لتحل محلها الخلافة العباسية التي اتخذت من بغداد عاصمة لها، وقد حاول العباسيون أن يظهروا اهتمامهم بفلسطين ومدينتها المقدسة، ليجاروا الأمويين في ذلك، فقد قام المنصور- الخليفة الثاني- بزيارة بيت المقدس عند عودته من أداء الحج عام 140هـ/748م"⁽²⁾.

ومن مآثر المنصور أنه "أمر بترميم العديد من الأبنية، ومنها الحرم الشريف"⁽³⁾.

وعندما "حل الضعف بالدولة العباسية، ونجمت فيها بدعة استقلال الأمراء والولاة بأقاليم الدولة التي كانوا يتولون حكمها، دخلت بلاد الشام، وبضمنها فلسطين، في هذه الدولة، وأخذت تتبع إدارياً الدويلات والإمارات التي تقيم نفوذها على أنقاض بني العباس... ففي زمن الدولة الإخشيدية مثلاً عادت فلسطين... وحدة إدارية، إذ تذكر المصادر أنها عقدت لنواب كافور بخمسائة ألف دينار"⁽⁴⁾.

لاشك في أن الموقع المميز لفلسطين قد أثر على تاريخها السياسي سواء في العصور القديمة أو الوسطى أو الحديثة، فلا يخفى على أحد ما كان من أمر الحملات الصليبية على بلاد الشرق ومنها فلسطين، واحتلالها للقدس؛ نظراً لما تمثله فلسطين بالنسبة للصليبيين من موقع جغرافي مميز، وما تحويه من مقدسات هامة لهم. إن من أسباب هذه الحملات أن "كان المشرق العربي في القرن الحادي عشر الميلادي منقسماً على نفسه إلى عدة دويلات صغيرة، بعد ضعف

(1) فلسطين، بيان نويهض الحوت، ص106.

(2) تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، ط3، ج3، بيروت، 1991، ص129.

(3) فلسطين، بيان نويهض الحوت، ص107، للمزيد من التفاصيل، انظر: ص108.

(4) الموسوعة الفلسطينية، مجموعة من الأساتذة، هيئة الموسوعة الفلسطينية، ط1، مج2، دمشق، 1984، ص120.

الخلافة العباسية... هذا التردّي في العالم الإسلامي هو الذي أطمع الإفرنج الصليبيين في الشرق"⁽¹⁾.

لقد بدأت هذه الحملات الفرنجية الصليبية ضد المشرق الإسلامي عقب الخطاب الذي ألقاه البابا أربان الثاني في السادس والعشرين من تشرين الثاني عام 1095م في بيكير مونت جنوب فرنسا، داعياً فيه الأوروبيين إلى تحرير المقدسات المسيحية من أيدي المسلمين⁽²⁾.

أثار زحف هذه الجموع الصليبية "روح الجهاد الإسلامي لتحرير القدس وفلسطين؛ فقامت... الدولة الزنكية 521-648هـ / 1127-1250م، والأيوبية 567-648هـ / 1171-1250م، والمملوكية 648-922هـ / 1250-1517م قامت لتتخذ بالقلاع والحصون والجيوش الصليبية إلى حيث أتت، ولتعيد... تحرير الشرق ثانية من الاستعمار الصليبي الاستيطاني"⁽³⁾.

ولا نريد أن نغفل في خضمّ هذه الأحداث الدور العظيم للقائد صلاح الدين الأيوبي، الذي انتزع بيت المقدس من أيدي الصليبيين " بعد الانتصار الكبير... في حطين توجّه بقوته إلى ميناء عكا، فاستسلم من فيها بأمان ودخلها صلاح الدين غرة جمادى الأولى (583هـ - 1187م)⁽⁴⁾.

لقد "استمرت المعارك بين صلاح الدين والصليبيين... وتكاد التوقعات تكون سجالاً بين الصليبيين وصلاح الدين: الصليبيون لم يستطيعوا التوغل داخل البلاد الشامية... وصلاح الدين لم يستطع زحزحة الصليبيين عن الساحل... ولهذا كانت الدعوة إلى المهادنة تجد رغبة عند الجانبين"⁽⁵⁾. والتي انتهت بمعاهدة صلح الرملة.

ثم أفلتت شمس الدولة الأيوبية عام 648هـ، وقامت دولة المماليك الذين يعود لهم الفضل في مواجهة المغول الذين احتلوا مدينة بغداد عام 1258م، فدمروا مكتبتها ومساجدها وقصورها،

(1) فلسطين أرض الحضارات، شوقي شعت، الأوائل، ط1 دمشق، (د.ت) ص30. وانظر: تاريخ فلسطين القديم، ظفر الإسلام خان، ص165.

(2) تاريخ الحملة إلى القدس، نوشيه الشارترى، ترجمة: زياد جميل العسلي، الشروق، ط1، عمان، 1990، ص32، 36 بتصرف.

(3) في فقه الصراع على القدس وفلسطين، د. محمد عمارة، دار الشروق، ط1 القاهرة، 2005، ص17.

(4) الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1982، ص85.

(5) السابق، ص91.

وكانت أنباء ذلك قد وصلت إلى مصر، فاستعد كل من قطز وبيبرس لمواجهةهم، فالتقيا بجيش المغول في معركة عين جالوت الفاصلة عام 1260م، وانتصروا عليهم وردّوهم نهائياً عن البلاد المقدسة⁽¹⁾.

بعد القضاء على المغول تفرّغ الظاهر بيبرس للوجود الصليبي منذ عام 1263م، فتمكّن من إخراجهم من الناصرة وقيسارية وأرسوف وصفد ويافا إلى أن طهّرت البلاد كلها من الوجود الفرنسي على يد الأشرف خليل بن قلاوون من آخر معاقلمهم في عكا عام 1292م⁽²⁾.

ومنذ عهد السلطان بيبرس كان التقدم في العلم والعمران يسيران على خطين متوازيين مع صد المغول وإخراج الصليبيين، وقد قام بيبرس بإصلاحات عديدة في الزراعة والري، وانتظم البريد في عهده، كما جدّد ما تَهَدّم من قبة الصخرة، وجدّد في حرم الخليل، وأقام العديد من الجوامع والمشاهد للأنبياء والصحابية الأوائل، فقد بنى على مقام النبي موسى قبة ومسجداً، وجدّد سماط إبراهيم الخليل... وتطوّر فن العمران في عهد المماليك تطوراً مميزاً، فاستعملوا النقش والزخارف والحجارة المتعددة الألوان... ومن العادات والتقاليد التي توارثها الفلسطينيون عن المماليك، إطلاق المدافع في الأعياد، والاحتفال بختم القرآن... أما الحياة العلمية في عهدهم، فقد ازدهرت ازدهاراً عظيماً، فألفت الكتب والموسوعات في التاريخ والجغرافيا والطب والفلسفة والزراعة وغيرها⁽³⁾.

أعقب هذه الفترة المملوكية الزاهرة العهد العثماني، والذي فيه "ضُمت فلسطين إلى الإمبراطورية العثمانية ... (1516-1917)⁽⁴⁾.

والموقف المبدئي الصلب الذي ينبغي أن يسجل للعثمانيين تجاه قضية فلسطين، حيث أصروا - حتى وهم في أشد حالات ضعفهم - على عدم التفريط بذرة تراب واحدة من أرض فلسطين.

(1) ذيل مرآة الزمان، اليونيني، حيدر أباد، ط1، ج1، 1991، ص360، 361 بتصرف. وانظر: الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني، د. نبيل خالد أبو علي، دار المقداد ط1، غزة، 2008، ص11 وما بعدها.

(2) انظر: تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، دار الفكر، ط2، ج5 بيروت، 1988، ص403.

(3) انظر: فلسطين، بيان نويهض الحوت، ص127، 128. وانظر: المدخل إلى القضية الفلسطينية، جواد الحمد وآخرون، مركز دراسات الشرق الأوسط، ط3، عمان، 1998، ص84.

(4) كي لا ننسى، وليد الخالدي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1 بيروت، 1997، ص731.

لقد سقطت فلسطين بمؤامرة عالمية بدأت بالاحتلال الإنجليزي، الذي كان له السيطرة والهيمنة على فلسطين، وسارع يجذب اليهود من كل حذب وصوب؛ لطرده السكان العرب وإذلالهم، ويتضح ذلك جلياً في عام "1840 عندما قدم اللورد الإنجليزي (شافتسبري) برنامجاً إلى مؤتمر لندن بشأن توطين اليهود في فلسطين على قاعدة (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض)، وهي القاعدة التي تبنتها الشراكة (الصليبية - الصهيونية) لاغتصاب القدس وفلسطين"⁽¹⁾.

وبداية المؤامرة "عندما قام نابليون بالإعداد لحملة على مصر وبلاد الشام، عقد عدة اجتماعات مع اليهود في فرنسا، تجلّت بتمويل اليهود للحملة، ودفع نفقاتها، وتؤكد الاتفاق والمؤامرة بين الطرفين عندما أعلن نابليون أمام أسوار عكا في 4 نيسان 1799 عن قيام وطن قومي لليهود في فلسطين"⁽²⁾.

وفي سنة 1897 انعقد في مدينة بال في سويسرا المؤتمر الصهيوني الأول، والذي قرر فيه اليهود إنشاء دولتهم في فلسطين"⁽³⁾.

ولقد حاول ثيودور هرتزل إغراء السلطان العثماني عبد الحميد الثاني بالمال، وذلك بـ"إرسال صديقه ليونسكي إلى السلطان عبد الحميد؛ ليطلب منه فتح أبواب فلسطين للهجرات اليهودية، عارضاً عليه إغراءات مالية، وتسخير النفوذ اليهودي في الدوائر الغربية لحساب الدولة العثمانية، ولكن السلطان عبد الحميد رفض هذا العرض"⁽⁴⁾.

لكن اليهود لم يقطعوا الأمل، حيث تمت المقابلة مرة أخرى مع السلطان عبد الحميد الذي قال لهرتزل كلمات تسجل بماء الذهب : "لو كنتُ أعلم أنك جئت اليوم تطلب مني ما رَفَضْتُ إجابتك إليه من قبل، لما سمحتُ لك بالدخول عليّ، واعلم يا هرتزل أن فلسطين جزء من أرض

(1) في فقه الصراع على القدس وفلسطين، د. محمد عمارة، ص 39، 40.

(2) شعب فلسطين أمام التآمر البريطاني والكيد الصهيوني، حسني أدهم جرار، دار الفرقان، (د.ط) عمان، (د.ت) ص 9.

(3) مذكرات وتسجيلات، محمد عزة دروزة، صامد، ط1، ج2، دمشق، 1986، ص 16 بتصرف. وانظر: الاستعمار الصهيوني في فلسطين، فايز صايغ، السكرتارية الدائمة لمنظمة تضامن الشعوب الإفريقية والآسيوية، القاهرة، (د.ت) ص 8، 9.

(4) في فقه الصراع على القدس وفلسطين، د. محمد عمارة، ص 41.

الإسلام لا تباع بالذهب والدرهم، ولقد حصلنا على كل شبر فيها ببذل دماء أجدادنا، ولن نفرط بشبر منها قبل أن نبذل كل دماننا دفاعاً عنها"⁽¹⁾.

وفي سنة 1914 نشبت الحرب العالمية الأولى⁽²⁾، فأعلن الشريف حسين - أمير مكة - تأييده للحلفاء؛ آملاً في مساعدتهم له بعد الحرب، حيث انصب اهتمامهم على هزيمة الامبراطورية العثمانية بأقصى سرعة ممكنة، بعد أن أيقنوا بأن هذه المهمة ستكون أكثر يسراً إذا استطاعوا إقحام العرب في ثورة ضد الحكام الأتراك، فوقع الاختيار على الشريف مكة المكرمة⁽³⁾.

وخلال عام 1916 كانت مراسلات الشريف حسين مع مكماهون - المندوب السامي البريطاني في مصر - تنتهي إلى الاتفاق على استقلال ووحدة الولايات العربية في الامبراطورية العثمانية⁽⁴⁾. حيث بدأ الأمير بن الحسين الاتصالات مع زعماء الحركة القومية، وبدأت الدولة العثمانية تتجرد من ولاياتها العربية الواحدة بعد الأخرى، من العراق إلى الشام ومصر وغيرها، وكانت الثورة العربية عام 1916 مرحلة مهمة ومحطة في تاريخ العرب، ونهاية الحكم العثماني في الحجاز والمشرق والوطن العربي، وخاتمة العهد العثماني⁽⁵⁾.

لقد كان من سوء حظ فلسطين وأهلها، أن ينجح اليهود في تحقيق حلم هرتزل بالقضاء على الدولة العثمانية التي كانت تقف سداً منيعاً في وجه المخططات الصهيونية للإجهاز على فلسطين.

(1) جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين والأتراك، زياد أبو غنيمة، دار الفرقان، ط2، عمان، 1986، ص 45، 46. وانظر: تاريخ الدولة العثمانية، زين العابدين شمس الدين نجم، دار المسيرة، ط1، عمان، 2010، ص398

(2) كي لا ننسى، الملحق الثاني، ص732

(3) فلسطين قبل الضياع، واصف عبوشي، ترجمة: علي الجرباوي، رياض الريس للكتب والنشر، (د.ت) ص 17 بتصرف.

(4) كي لا ننسى، الملحق الثاني، ص 732.

(5) موسوعة التاريخ الإسلامي - العصر العثماني، د. مفيد الزبيدي، دار أسامة، عمان، 2003، ص311.

وفي مايو سنة 1916 خدعت بريطانيا العرب ، ووقعت اتفاقية (سايكس- بيكو) مع فرنسا)، والتي ينص أحد بنودها على: "إنشاء إدارة دولية في فلسطين يُعَيَّن شكلها بعد استشارة روسيا، وبالاتفاق مع الحلفاء ومع ممثلي الشريف حسين"⁽¹⁾.

وهكذا فإن هذه المعاهدة نصت على تدويل فلسطين؛ تمهيداً لوضعها تحت الانتداب البريطاني.

لقد كان لاندلاع الحرب عام 1914 فرصة مواتية لتنفيذ مخططات بريطانيا لاحتلال فلسطين، حيث عقدت الحكومة البريطانية سلسلة من المحادثات والاتفاقيات من أجل تنفيذ تلك المخططات، انتهت بإعلان تصريح بلفور في الثاني من نوفمبر 1917م⁽²⁾.

وينص هذا التصريح المنثور في مواضع عدة لكتب عديدة لعدد من المؤلفين، على: "إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وسوف تبذل ما في وسعها لتيسير تحقيق هذا الهدف، وليكن مفهوماً بجلاء أنه لن يتم شيء من شأنه الإخلال بالحقوق المدنية للجماعات غير اليهودية المقيمة في فلسطين، أو بالحقوق والأوضاع القانونية التي يتمتع بها اليهود في أية دولة أخرى"⁽³⁾.

وفي هذا التصريح تم الاعتراف باليهود شعباً له كل حقوق الشعوب في أوطانها، بينما أشير إلى الشعب الفلسطيني بعبارة الجماعات غير اليهودية.

لقد أدرك الزعماء العرب أن هذا "الوعد كاذب متناقض... لأن العرب كانوا يؤلفون 93% من نسبة السكان، وكانوا يملكون 98% من أراضي فلسطين ومرتفعاتها..."⁽⁴⁾.

وتسارعت وتائر التنفيذ لمخططات الاحتلال (الصليبي - الصهيوني) للقدس وفلسطين، حيث احتلت القوات الحليفة فلسطين بقيادة الجنرال اللنبي في أيلول / سبتمبر 1918م⁽⁵⁾.

(1) تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر، رفيق شاعر النتشة وآخرون، المؤسسة العربية ، ط1، بيروت، 1991، ص11. وانظر: تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية، عيسى الحسن، الأهلية، ط1، عمان 2008، ص717.

(2) فلسطين والانتداب البريطاني، كامل محمود خلة، المنشأة العامة، ط2، طرابلس، 1982، ص7 بتصريف.
(3) الموسوعة الفلسطينية، المجلد1، ص416. وانظر: وثائق فلسطين من العهدة العمرية إلى وعد بلفور (637-1917م) ، فتحي نصار، الدار الثقافية للنشر، ط1، القاهرة، 2003، ص166. وانظر: موسوعة تاريخ اليهود، محمود شاكر، دار أسامة للنشر، ط1، عمان، 2003، ص350.

(4) مذكرات وتسجيلات، محمد عزة دروزة، ص17. وانظر: فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، عيسى السفري، مكتبة فلسطين الجديدة، يافا، 1937، ص10.

(5) كي لا ننسى، الملحق الثاني، ص732.

وقال النبي كلمته الشهيرة: "اليوم انتهت الحروب الصليبية"⁽¹⁾.

وفي 24 تموز 1922م قدمت الحكومة البريطانية صك انتدابها على فلسطين إلى عصابة الأمم المتحدة دون تعديل فيه كما اقترحت الحركة الصهيونية، علماً بأن مجلس الحلفاء وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا، المنعقد في سان ريمو، قد وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وتضمنت مقدمة هذا الصك نص وعد بلفور⁽²⁾.

وبذلك توّضع فلسطين تحت الإدارة العسكرية البريطانية بعد احتلالها كاملاً، وبدأ عهد جديد مؤلم بالنسبة لفلسطين، التي تحولت من أرض النعيم إلى أرض الشقاء؛ حيث بدأت تتدفق أمواج المهاجرين اليهود سراً وعلناً تحت حماية الجيش البريطاني، وذلك بدخول "الموجة الثالثة من المهاجرين الصهيونيين، وعدد أفرادها 350000 مهاجر، تزيد في عدد اليهود في فلسطين ليصل إلى ما نسبته 12% من مجموع السكان"⁽³⁾.

لم يقف الشعب الفلسطيني مكتوف الأيدي أمام هذه المؤامرة عليه وعلى أرضه، حيث بدأت التصديتات والمواجهات ضد الاحتلال البريطاني، والمطامع الصهيونية منذ عام 1919م، والتي شكلت في مجموعها ثورة مستمرة لم يكن أوارها ليخبو حتى يتأجج من جديد، ومن هذه الثورات⁽⁴⁾:

ثورة النبي موسى عام 1920، والتي شارك فيها مسلمون ومسيحيون، وثورة يافا عام 1921، والتي كان سببها قيام الجنود البريطانيين بقتل أحد الفلسطينيين دفاعاً عن اليهود الذين كانوا يحتفلون بعيد الأول من أيار عام 1921م، إضافة إلى ثورة نابلس عام 1923، وثورة البراق 1929، والتي كان سببها ادعاء اليهود ملكية جدار البراق، وثورة القسام 1935، حيث عمت الإضرابات والمظاهرات جميع أنحاء فلسطين، والتي أعقبها ثورة عام 1936، والتي تفجّرت ضد الانتداب البريطاني، والتي استمرت إلى أن نشبت الحرب العالمية الثانية عام 1939.

(1) في فقه الصراع على القدس وفلسطين، د. محمد عمارة، ص44.

(2) تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر، رفيق شاعر الننتشة، ص16 بتصرف. وانظر: فلسطين قبل الضياع، واصف عبوشي، ص10.

(3) كي لاننسي، الملحق الثاني، ص732.

(4) انظر من التشرّد إلى الدولة، د. إبراهيم يحيى الشهابي، اتحاد الكتاب العرب، ط1، 1990، ص21، 22، 24. وانظر: التحولات الفلسطينية، عمر حلمي الغول، دار الوسيم، ط1، دمشق، 1992، ص21 وما بعدها.

وفي التاسع والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر 1947، أقرت الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة تقسيم فلسطين إلى دولتين، ومن ثم سارعت بريطانيا إلى الإعلان أنها ستتهيأ لتدابيرها على فلسطين في 15 أيار عام 1948م⁽¹⁾.

في هذه اللحظة "أعلن اليهود قيام الكيان الصهيوني بلا حدود معينة، والذي أطلق عليه اسم (دولة إسرائيل)، أما الفلسطينيون فلم يتخذوا أية خطوة سياسية مضادة... انطلاقاً من رفضهم أساساً لقرار التقسيم، ومن عدم اعترافهم بأي حق لليهود في إقامة أي كيان سياسي لهم على أرض فلسطين"⁽²⁾.

لقد رفض العرب قرار التقسيم حيث "أعلنت الحرب، فدخلت الجيوش العربية... الجيش المصري، والجيش السوري، والجيش الأردني، والجيش العراقي، كما اشتركت بعض الوحدات من الجيش اللبناني"⁽³⁾، لإنقاذ فلسطين، وتهمز في النهاية، ويربح الصهاينة الحرب والأرض، ويطردهن ويهجرن مئات الآلاف من الفلسطينيين.

لقد كانت حرب فلسطين 1948 حدثاً من أخطر الأحداث في التاريخ المعاصر، وأخطر المراحل في الصراع على فلسطين، حيث استطاعت "الصهيونية بمساعدة... كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية من السيطرة الكاملة على جزء كبير من الأرض الفلسطينية، وخول الكيان الصهيوني وزير الدفاع الصهيوني... إجلاء السكان العرب الذين لم يهاجروا من بلادهم،... بالقوة بحجة أن أرضهم هذه ضرورة لأمن الكيان الصهيوني"⁽⁴⁾.

لقد سُرد الفلسطينيون، وأصبحوا كريحشة في مهب الريح، وتركوا بلادهم "تبعاً لأوامر زعمائهم على أمل العودة المظفرة بعد تحقيق الانتصار"⁽⁵⁾.

ولكن الشعب الفلسطيني لم ينتظر ما سوف يقدمه لهم العرب، بل هبوا منذ اللحظة الأولى يقاومون بالسلاح وبالدم، وخاصة فلسطينيي 1948، الذين خضعوا "لنظام الحكم العسكري الإسرائيلي التكتيلي، ولسياسة السلب والمصادرة والتهويد للأراضي العربية،... بغية إجبارهم على ترك أراضيهم وبيوتهم، والهجرة إلى الخارج... غير أن هذا المخطط أفضله

(1) فلسطين أرض الحضارات، شوقي شعت، ص211 بتصرف.

(2) من التشرذم إلى الدولة، د. إبراهيم يحيى الشهابي، ص28.

(3) فلسطين أرض الحضارات، شوقي شعت، ص211.

(4) تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر، رفيق النتشة، ص38.

(5) حرب فلسطين إعادة كتابة تاريخ 1948، إيوجين روحان، وآفي شليم، ترجمة: ناصر عفيفي، مؤسسة روزاليوسف، (د.ط)، القاهرة، (د.ت) ص224.

تواصل نهج الصمود والتحدي بكل ما ترتب عليه من تضحيات ... بلغ ذروته في انتفاضة الأرض... في 30 آذار/ مارس 1976م⁽¹⁾.

كانت هزيمة الفلسطينيين والعرب العسكرية عام 1948، سبباً هاماً جداً في التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، التي حدثت بعد الحرب مباشرة، إذ تأكدت الشعوب العربية من خطورة (إسرائيل) والوجود الاحتلالي، لاسيما بعد "العدوان الثلاثي البريطاني ، والفرنسي، والإسرائيلي عام 1956 ضد مصر... حيث تمكنت إسرائيل... من احتلال كل من قطاع غزة وسيناء، وانسحبت بعد أربعة شهور، في آذار / مارس 1957م"⁽²⁾.

وتتوالى النكبات على العرب والفلسطينيين، وخصوصاً بعد انتصار الكيان الصهيوني في "حزيران (يونيو) 1967، والذي تمكنت خلاله إسرائيل من احتلال باقي الأراضي الفلسطينية، التي لم تحتلها عام 1948، وهي الضفة الفلسطينية، والقدس الشرقية، وقطاع غزة"⁽³⁾.

إن نضال الشعب الفلسطيني لم يتوقف نهائياً من أجل تحقيق هدفي العودة والتحرير ، وإقامة الدولة الفلسطينية، حيث اتخذ هذا النضال أشكالاً مختلفة من منطقة لأخرى، حيث "وجد الفلسطينيون في الأحزاب والجماعات السياسية والوطنية في الدول التي يقيمون فيها متنفساً لهم للعمل الوطني... لعلهم يستطيعون تحقيق أهدافهم الوطنية في تحرير فلسطين"⁽⁴⁾.

وكان تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية في عام 1964م تنويجاً لعملية الوعي الكياني الفلسطيني، ونضوج الظروف الذاتية الفلسطينية، حيث "جاء إعلان قيام منظمة التحرير الفلسطينية في الثامن والعشرين من أيار/ مايو 1964 في المؤتمر الفلسطيني الأول"⁽⁵⁾.

لقد "أعطت المنظمة اهتماماً خاصاً للكفاح المسلح ضد العدو الصهيوني داخل فلسطين المحتلة، وقد اتخذ هذا الكفاح المسلح صورة عمليات عسكرية تقوم بها المقاومة الشعبية في الداخل، وصورة عمليات عسكرية توجه إلى الداخل من قواعد الثورة في الخارج"⁽⁶⁾.

(1) الانتفاضة الفلسطينية الكبرى، أسعد عبد الرحمن ونواف الزرو، عمان، 2001، ص224.

(2) التحولات الفلسطينية، عمر الغول، ص23.

(3) السابق، 23. وانظر: فلسطينيات، مجموعة من الباحثين، إشراف: أنيس صايغ، م.ت.ف، مركز الأبحاث، بيروت، 1968، ص103.

(4) تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر، رفيق شاعر الننتشة، ص127.

(5) الانتفاضة الفلسطينية الكبرى، عبد الهادي الناشاش، ص50.

(6) مسيرة الشعب الفلسطيني وآفاق الصراع العربي الإسرائيلي في الثمانينات، أحمد صدقي الدجاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، بيروت، 1980، ص16.

ورداً على ذلك، قام الكيان الصهيوني عام 1982 بغزو لبنان، واحتلال بيروت، وإجبار منظمة التحرير الفلسطينية على الخروج إلى تونس وغيرها من الدول العربية⁽¹⁾.

هناك أحداث كثيرة تمر دون أن تترك أثراً يذكر، وأناس كثيرون يولدون ويموتون، ولا يكاد يذكرهم حتى أبناؤهم، وبالمقابل هناك أعلام يصنعون التاريخ، ويدخلون تراث الأمم والأساطير، ومن هؤلاء (أطفال الحجارة)، كل طفل فيهم مَثَلٌ يحتذى به، وكل شهيد منهم علم يهتدي به كل نائر وكل مجاهد.

لقد أدت الوقائع والأحداث السالف ذكرها إلى "تفجر بركان الشعب الفلسطيني في صورة انتفاضة جماهيرية عارمة، امتدت من الأراضي المحتلة عام 1967م إلى الأراضي المحتلة بعد عام 1948م لأول مرة منذ قيام إسرائيل"⁽²⁾.

لقد كان للانتفاضة الفلسطينية نتائج سياسية جدّ هامة، على المستوى الفلسطيني والعربي والدولي، شكّلت نقطة تحول كبرى في تاريخ القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني، ومن أهم هذه النتائج السياسية: فك الارتباط الأردني الإداري بالضفة الغربية، وإعلان الاستقلال، ومبادرة السلام الفلسطينية، وبدء الحوار المباشر الأمريكي - الفلسطيني⁽³⁾.

وتتلاحق الأحداث تباعاً، لتتوج باندلاع الانتفاضة الفلسطينية الكبرى الثانية في العام 2000م، رداً على الزيارة التي قام بها أرنيل شارون إلى ساحة المسجد الأقصى، إضافة إلى "الانهيار السريع والمذهل لعملية المفاوضات ومرجعياتها ومصداقيتها... وحيث أن الحكومة الإسرائيلية برئاسة الجنرال باراك أسفرت عن النوايا والخطط الابتزازية التركيبية ضد الفلسطينيين بشكل أخص، فقد كان من الطبيعي... أن تحتقن وتتدهور الأوضاع"⁽⁴⁾.

ويمكن القول أن "انتفاضة الأقصى هي جزء من الحوار المسلح الذي انخرط فيه المنتفضون الفلسطينيون مع المستوطنين الصهاينة، ولعل من أهم ثمرات هذا الحوار، أن

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية، المجلد السادس، ص979 وما بعدها.

(2) الانتفاضة والدولة الفلسطينية، لطفي الخولي، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1988، ص9.

(3) انظر: الموسوعة الفلسطينية، المجلد السادس، ص996 وما بعدها.

(4) الانتفاضة الفلسطينية الكبرى، أسعد عبد الرحمن، ص117.

المستوطنين الصهاينة بدؤوا يدركون الانتفاضة لا باعتبارها إرهاباً، ... وإنما هي حرب تحرير وحركة مقاومة⁽¹⁾.

إن الصراع مع المحتل الصهيوني من الصراعات الممتدة في الزمان والمكان ، ولن يتحقق إنهاء هذا الصراع إلا بإزالة أسبابه، والعودة إلى النقطة التي بدأ من عندها الخطأ، وهو يحتاج في التعامل معه إلى التحلي بالنفس الطويل، والثقة بقدرات الأمة على المواجهة، وتمثل روح الانتفاضة والمقاومة فيها.

إن (القضية) التي شكّلت عنصر التفجير الأساس لكل الثورات الفلسطينية، ما زالت قائمة، وستظل قائمة، ما دام الشعب الفلسطيني يتعرض إلى الظلم والاستبداد، ومادامت أرضه ترزح تحت نير الاحتلال.

(1) من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية، د. عبد الوهاب المسيري، دار الفكر، ط1، دمشق، 2002، ص117.

الفصل الأول

الأرض في أتون الصراع

- الأرض الفلسطينية في سجل الحضارة والتاريخ.
- الأرض الفلسطينية قبل حلول النكبة.
- الأرض الفلسطينية بعد حلول النكبة.
- أرض الشتات والمخيمات ونثراتها.

أولاً: الأرض الفلسطينية في سجل الحضارة والتاريخ

ليست قصة أصل الحضارة الإنسانية، ثم مولدها وتطورها إلا سلسلة متعاقبة بدأت في فلسطين، ففي هذه البقعة نبتت شجرة المدنية الأولى، وشعَّ في سمائها ذلك النور المتأجج، نور المعرفة والعلم، في وقت كان فيه العالم خارج هذه المنطقة ينوء تحت حُجُب كثيفة من ظلام التوحش، كيف لا وقد قدمت فلسطين إلى حضارة الوطن العربي القديمة، وإلى الحضارة العربية الإسلامية، وإلى الحضارة العالمية الكثير من الإسهامات، وهذا ما جعل (أبو سلمى) يصدق ويتغنى ويفخر بحضارة وطنه في قوله⁽¹⁾:

فلسطين، إننا بنينا الحضارة
ونحن الذين أنزلنا الطريق
تسير على جانبينا الشعوب
فوق العصور كما تذكرون
وكننا مشاعل حق ودين
ونحن أمام الصباح المبين

وهناك عاملان أساسيان لكل منهما الأثر الأكبر في تاريخ فلسطين الحضاري والسياسي منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا، وكلاهما قد أضفى على فلسطين موقعاً متميزاً لم يمتلكه أي بلد آخر في العالم عبر التاريخ كله.

العامل الأول (جغرافي): وهو موقع فلسطين، همزة الوصل بين القارات الثلاث كما أسلفنا⁽²⁾.

أما العامل الثاني (ديني): فقد كان قدر فلسطين أن تكون وطناً للرسالات السماوية التوحيدية، وفي مدنها ظهر السيد المسيح حاملاً رسالة السماء إلى العالم، وإليها أُسري برسول الإنسانية محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين وسيد المرسلين...⁽³⁾.

لذلك فالمؤمنون يؤمنونها من جميع أنحاء العالم، وكذلك الطامعون تحت ستار الدين؛ لهذا كانت الحروب الصليبية قديماً، والتحالف الصهيوني حديثاً⁽⁴⁾.

ولاشك أن هذه الأطماع لها أسباب أخرى غير الأسباب الدينية فهناك أسباب اقتصادية أيضاً، فموقع فلسطين الجغرافي جلب إليها البضائع من سائر بقاع الأرض شرقاً وغرباً، وسارت منها وإليها القوافل محملة بالبضائع المختلفة، ناقلة إليها ومنها كل ما يحتاجه البشر،

(1) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي)، دار العودة، (د.ط) بيروت، 1989، ص 11.

(2) راجع: التمهيد، ص 7.

(3) فلسطين أرض الحضارات، شوقي شعت، ص 3 بتصرف.

(4) راجع: التمهيد، ص 7 وما بعدها.

وحول هذا يتحدث هنري برستيد الذي ذكره شوقي شعت في كتابه "فلسطين أرض الحضارات" قائلاً: "وقد تَسَنَّى لفلسطين أن يجتمع في أسواقها أناس من كل بلد وأمة ولسان، فكان الواحد يشاهد في تلك الأسواق ما صنعتها يد المصري من نفيس الحلّي ومختلف الأواني النحاسية...، وفخار جزر إيجه، وخزف بلاد الحِيثيين الأحمر، ومنسوجات الصوف البابلية، ... لقد امتزجت في فلسطين مدنيات مصر وبابل وفينيقية وبلاد إيجه وآسيا الصغرى بأسلوب لا مثيل لها في الشرق القديم..."⁽¹⁾.

كما أن قرب فلسطين من شبه الجزيرة العربية أكسبها ميزة إضافية حيث أخذ أهل الجزيرة ينزلونها وخصوصاً أهل قریش وما عُرف بـ (رحلتي الشتاء والصيف)، قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾⁽²⁾.

نعم، إن أهل مكة كان لهم رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وكلا المنطقتين كانتا مركزين حضاريين، ومن الشام كانت تجلب الحاصلات الزراعية إلى بلادهم المحرومة منها (قریش)⁽³⁾.

وذاك ما عبّر عنه عبد الكريم السبعوي في قوله⁽⁴⁾:

لإيلاف القرشيين كان الصيف يدخر الغمام

وكنت أرتقب القوافل في تخوم الشام

حيث أشار إلى مكانة فلسطين التاريخية التجارية التي يجسدها ذكر رحلة الصيف التي كانت تقوم بها قریش.

وكذلك قوله⁽⁵⁾:

لإيلاف غزة إيلافها

وللعشميات إيلافها

(1) فلسطين أرض الحضارات، شوقي شعت، ص8.

(2) قریش: 1، 2.

(3) في رحاب التفسير، عبد الحميد كشك، المكتب المصري الحديث (د.ط) ج29، مج9، القاهرة، (د.ت)، ص 8103 بتصرف.

(4) في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل خالد أبو علي، دار المقاد، ط1، غزة، 2001، ص119.

(5) السابق: ص119، 120.

أنتها القوافل من مطلع النور

تنثر في الأرض حناؤها

تبوأها هاشم، والغطاريف

ألقوا الرحال على بابها

كان من الطيب هذا الثرى

ومن كوثر الله سلسالها

وحين رمتها خطوب الزمان

اجترح النصر أطفالها

حيث يماثل الشاعر هنا بين العودة للوطن، وما يحيط من مشاعر البهجة، وبهجة قوافل قریش بما كانت تجنيه من رحلتها إلى الشام، ثم يوازن بين ما كانت تتمتع به فلسطين من رخاء وأمان، وما وأوصلتها إليها الخطوب⁽¹⁾.

لقد برزت في فلسطين حضارتان رئيسيتان منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، هما الحضارة الكنعانية، والحضارة العربية الإسلامية، وإن حصر الحضارات القديمة الكبرى بالحضارة الكنعانية لا يلغي أهمية الحضارات الأخرى المتعددة، التي عاشت كل منها رداً من الزمن، وهذه الحضارات استنارت بالحضارة الكنعانية، وأثرت وتأثرت فيها، بل وكانت الحضارة الكنعانية شعلة أنارت بوهجها حضارات الشعوب التي استقرت في فلسطين، ولست هنا في مجال تعدادها، وإنما أكتفي بالإشارة إلى محطات حضارية بارزة هي: الحضارة الفارسية واليونانية والرومانية، مع التركيز على الحضارة الكنعانية، أما الحضارة الإسلامية فإضافة إلى ما أسلفته من حديث عنها، أريد أن أضيف للحضارة الإسلامية، وخاصة في العهد المملوكي فيما يتعلق بالمؤسسات التجارية في ذلك العهد، بما عُرف بالخان، والذي هو أهم المؤسسات التجارية، ومن أشهره خان يونس، وهي بلدة تقع على الساحل الجنوبي لفلسطين، وكانت قلعة أنشئت لحماية التجارة أيام المماليك في عهد السلطان برقوق سنة 789هـ/1316م، الذي أرسل حامل أختام الأمير يونس النوروزي الدوادر؛ لبناء القلعة في ذلك الموقع،... وهي أشبه بمجمع

(1) في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل أبو علي، ص120.

حكومي، فيها مسجد تطل مئذنته فوق سور القلعة...⁽¹⁾، وهذا ما أشار له غريب عسقلاني⁽²⁾ في المجموعة القصصية (عزف على وتر حزين)، قصة (عن رجال عرفتهم) في قوله: "... ويحفظ أسرار قلعة برقوق، يحفظ بحجارتها أصولها وتواريخها، ويتعرّف على فتحات الطوابي، وشراعات الرماية في بقايا سورها، يوزّع حبات قلبه مع أفواسها ومقرنصاتها، يبحث في أصل مواد الطلاء ومكونات الملاط، ويبحث مع ذاكرة جزئيات الفسيفساء وألواح القيشاني..."⁽³⁾.

نعود إلى المحطات الحضارية، وأولى هذه المحطات: الحضارة الكنعانية.

لقد ولدت الحضارة الكنعانية من مزيج من أجناس عديدة كانت تتوجه جميعاً عبر القرون صوب الهلال الخصيب، وقد وصلت بعض هذه الأجناس إلى الحدود الغربية من أرض كنعان لتستقر فيها، ومع هذا يمكن التحدث عن حضارة كنعانية؛ لأن استمرارية التطور نفسه يتجلى عبر ما قدمته الأجناس المختلفة، وقد اغتنى هذا التطور بما قدّمه الساميون من عموريين وآراميين وأنباط و... وكانت الحضارة الكنعانية على درجة من القوة تكفي لامتصاص واستيعاب المهاجرين... فما وراء القوقاز⁽⁴⁾.

ويمكن القول أن الكنعانيين العرب الذين هاجروا من الجزيرة العربية ضربوا بسهم وافر من المدنية، واشتهروا ببناء المدن المحصّنة، واستعمال العجلات الحربية، وعرفوا ازدهار التجارة، وانتعاش الزراعة، والجدير بالذكر أن النقوش المصرية المكتوبة على جدران معبد

(1) انظر: الموسوعة الفلسطينية، دراسات الحضارة، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، المجلد الرابع، ط1، بيروت، 1990، ص830.

(2) ولد في مدينة المجدل سنة 1948، ولجأ مع أسرته إلى غزة، وفيها أكمل دراسته الابتدائية والثانوية، حصل على دبلوم الدراسات العليا من معهد الدراسات الإسلامية في القاهرة، وبكالوريوس زراعة سنة 1969، عمل مدرساً في ثانوية الكرمل في مدينة غزة، وظل يعمل في التدريس حتى عام 1994، حيث عين مديراً بوزارة الثقافة، اسمه الحقيقي إبراهيم الزنط، ويكتب تحت اسم غريب عسقلاني؛ لأنه من عسقلان وغريب عن بلاده. موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين، أحمد عمر شاهين، منشورات المركز القومي للدراسات والتوثيق، ط2، غزة، 2000، ج2، ص 538، 539.

(3) عزف على وتر حزين (مجموعة قصصية) قصة (عن رجال عرفتهم) ، غريب عسقلاني، منشورات دار الماجد، ط1، رام الله، 2005، ص55. (عن رجال عرفتهم) من مجموعة (عزف على وتر حزين)، وهي تداعيات حول رحيل الكاتب المعروف إميل حبيبي.

(4) فلسطين أرض الرسالات السماوية، روجيه غارودي، ترجمة: قصي أتاسي، وراشيل واكيم، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، دمشق، 1991، ص 40 وما بعدها، بتصرف.

الكرنك ذكرت أسماء 119 مدينة من مدنها، لذا لا عجب إذا وصفت فلسطين في التاريخ القديم بأنها بلاد الخيرات التي تدر لبناً وعسلاً⁽¹⁾.

أما المحطة الثانية: الحضارة الفارسية

لقد صرّف الفرس اهتمامهم للمواصلات والإدارة وتنظيم الضرائب، وقد صكّوا النقود الذهبية والفضية، وانصرف الناس إلى التجارة والزراعة، وعرفت فلسطين هدوءاً نسبياً، وخصوصاً أن حكم داريوس اتصف بالعدل لا بالبطش والقسوة، وانتهى العهد الفارسي بفتوحات الإسكندر المقدوني⁽²⁾.

وننتقل إلى المحطة الثالثة: الحضارة اليونانية

بعد أن أخضع الإسكندر المقدوني المدن اليونانية توجّه إلى آسيا الصغرى لمحاربة الفرس... وكان الإسكندر يهدف إلى دمج الشرق في الغرب وجمعها تحت حكم واحد... ولكنه آمن بضرورة انتشار الحضارة الهيلينية الإغريقية، وقد بدأت اللغة اليونانية بالانتشار، وكذلك مظاهر الحضارة الإغريقية، وكان الهم اليوناني الأكبر في نشر الحضارة يرتكز على بناء المدن الجديدة، وترميم المدن القديمة، وإنشاء المدارس وبناء المسابح والمعابد والملاعب والساحات، فضلاً عن نشر العادات والتقاليد اليونانية، وقد بنوا وجددوا مدناً فلسطينية عديدة منها: يوفيا (يافا)، ورفيا (رفح)... بالإضافة إلى العديد من القرى⁽³⁾.

والمحطة الأخيرة تتمثل بالحضارة الرومانية.

ففي فلسطين ما قبل الميلاد يعرف هيرودوس بأنه أكثر من أشاد وبنى، فقد بنى المدن والقلاع والحصون والمسارح والملاعب والمدارج والأسوار والقصور، ومن أشهر المدن حضارة في العهد الروماني كانت قيسارية وعسقلان وغزة، أما في الصناعات، اشتهرت فلسطين بصناعة الكتان والنسيج⁽⁴⁾.

يمكن القول إذن، أن فلسطين يمكن اعتبارها بحق أرض الحضارات؛ فقد شهدت بطاها ظهور الإنسان الأول، وشهدت اختراع النار وعرفت القرية وحياة الاستقرار والعمل الجماعي وصناعة الفخار والحياة المدنية والسياسة في أشكال مختلفة، ناهيك عن أنها الأرض المقدسة عند أصحاب الرسالات السماوية الثلاث وهي بذلك جمعت فضائل أرض الرسالات، وفضائل أرض الحضارات.

(1) انظر: القضية الفلسطينية الأرض والإنسان، شحادة الناطور، دار الأمل، (د.ط) إربد، 1995، ص 6.

(2) فلسطين، بيان نويهض الحوت، ص 56 بتصرف.

(3) السابق، ص 58-60 بتصرف.

(4) السابق، ص 62 وما بعدها بتصرف.

ثانياً: الأرض الفلسطينية قبل حلول النكبة

الهناء والنعيم: لقد عاش الشعب الفلسطيني أيام عز وبحبوحة قبل النكبة، إذ كان ميسوراً مُنعمًا، حيث الأرض الواسعة الخصبة الثرية بالفواكه والخضار والمعادن والحبوب، والمناخ اللطيف الجميل وقد تأسّلت في هذا الشعب معاني الشهامة والمروءة، وعادات الكرم واللفظ والاحتراف بالأصدقاء، وإقامة الأفراح العامرة في الأيام الملاح.

وقد عبّر الشعراء عن ذلك من خلال وصفهم لوطنهم في أشعارهم وهذا هو عدنان النحوي يسترجع الصورة المبهجة لوطنه في قوله⁽¹⁾:

يا فلسطينُ والرُّبى حانِياتُ
وثناياكِ خافقاتُ رجاءَ
مُهَجِّ في ظلالِ واديكِ أرجعتِ
هواها وخَفَقها أصداءَ
وسفوحُ يَلْفُها الأملُ الحلو فتَمَتَّدُ
في الزمانِ رضاءَ
كَم دَرَجنا على رُبوعكِ نَلقى
ظَلَّها أو مُرُوجها الخُضراءَ
كم زرعنا بأرضها غرساتِ
وسقيناكِ بالأدما كُرماءَ

ومثله قول الشاعر سعيد علي زين الدين⁽²⁾ في قصيدة له بعنوان "فلسطين!!"، يصف فيها سماءها، وأرضها، وهواءها⁽³⁾:

(1) الأرض المباركة، عدنان النحوي، المكتب الإسلامي، ط2، بيروت، 1981، ص95.
(2) ولد الشاعر بمدينة غزة عام 1894 في حي الدرج... أنهى دراسته الابتدائية في مدرسة الرشيدية بغزة، رحل إلى يافا، حيث عاش في كنف إخوته بعد وفاة والديه، لم يمكث كثيراً في يافا، فاتجه نحو دمشق، حيث التحق بمدرسة دار المعلمين، ولما أتم دراسته عمل مدرساً في منطقة السويداء بجبل الدروز... للمزيد انظر: سعيد علي زين الدين، (المحامي الثائر والمربي الشاعر 1894-1959)، سليم عرفات المبيض، غزة، فلسطين، 2011، ص17 وما بعدها.

(3) السابق، ص 35.

وكعبة آمالي وقبلة مقصدي
وأرض كروض تحكي لون الزبرجد
وماء نميرٌ مثل شهد مبرد

فلسطين أوطاني ومهدي ومعبدي
سماء صفت حسناً زهت بنجومها
هواءً نقياً يملأ الجسم صحةً

وفي مكان آخر في قصيدة بعنوان "وطني.."، يقول(1):

لم يهو قلبني في البلاد سواكا
فردوس حسناً والنعيم رباكا
ولكم شفى بزلاله مرضاكا
بنجومها وشموسها ترعاكا
فيفيض بالخيرات بحر عطاكا
وعلا على هام العلى مثواكا

وطني الحبيب وحق من سواكا
فرياضك الغناء تحكي جنة الـ
وكذا ماوك كالفترات حلاوة
وسماوك الزرقاء شبه قلوبنا
تزجي إليك سحب غيث هاطل
يا موطناً فاق الثريا رفعة

ومثله قول عبد الكريم الكرمي(2):

وفي ذلك المشرق المقدس ننعّم
سماواتها بزهرك تحلم
إن طوّقت وطاف المتيم
تهدي الهوى لمن يتنسم
وذكرى محمد وابن مريم
كل عين في أرضنا عين زمزم
من عروش خلف الحدود وأعظم

نعمة الله أنت يا وطني الغالي
أين من زهرك النجوم اللواتي في
وعذاراك، أين منها عذارى الخلد
والصبابات تزحم الركب والأنفاس
أين من جوك المضمخ بالمجد
كل بيت نراه حبة تين
ذرة من ترابك الظهر خير

وكذلك عبد الكريم السبعوي الذي يسترجع مباحث حياته في ربوع الوطن قبل أن يُشرده
الاحتلال(3):

لماذا تعود الرسائل مغلقة ليلة العيد

أسأل ساعي البريد البريد

هل أغمضت جفنها في ليالي الحصار؟!!

(1) سعيد على زين الدين (المحامي النائر والمربي الشاعر 1894-1959)، سليم عرفات المبيض، ص162.

(2) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي)، دار العودة، بيروت، 1989، ص59.

(3) في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل خالد أبو علي، ص126، 127.

هل خبزتُ للصغار

كعك أيوب؟

هل زوّقت بيض باب الداروم؟!

هل زغردت للخيل التي رمحتُ

في خميس أبو الكاس؟!

قيل: دراويشنا ابتلعوا الشوك والنارُ

وعبر شريط الذكريات ، والاعتماد على الاستعادة والاسترجاع، يربط غريب عسقلاني بين صورة للماضي الجميل، والحاضر المؤلم في المقطع السردي: "استراحت كوثر على صدر أم حسن، تتحدث عن مشاويرها بين إجزم وحيفا مع أخيها رجا... صبية طفلة تنتظ في وادي النسناس، من بيتها إلى بيت خالها، إلى بيوت الجيران، كل البيوت لها، وكل الصبايا رفيقاتها، وكل حكايات الوادي في رأسها الصغير، حكاياتها مع ابن عمها الذي منع الخُطاب من طرق بابها... لكنهم حاصروا الحارة بحثاً عن قاتل اليهود في الهدّار، واستدعوا خالها للتحقيق... وظلت في بيت الخال، حتى ظهر ومضى بها إلى بيت الحاج حسن العجرمي في سكنة درويش، وعاشت مع البنات في البيت الكبير... إلى أن نعق الغراب في السكنة، يوم استشهاد الحاج العجرمي في اشتباك لفك الحصار عن الثوار في دوار الدجاني"⁽¹⁾، إن هذا المقطع يصور الانفعالات المتنوعة المختلفة، حيث نلاحظ تداول عواطف الحب والأمل واليأس واللقاء والإبعاد، والحنين إلى المكان، هذا الحنين الذي يجد مبرراته في فقدان المكان بشكل قسري، إضافة إلى الكشف عن ملامح البطولة والمقاومة التي تمسك بها أبناء الشعب الفلسطيني عبر تاريخ حافل بالصراع، فالحاج العجرمي كان من المجاهدين، وقد استشهد في اشتباك لفك الحصار عن الثوار.

وأيضاً من خلال تقنية الاسترجاع التي تم توظيفها بصورة مقنعة في بعض المواضع؛ لأنها جاءت تلبية للسياق الداخلي لحركة الشخصية، أو المواقف التي مرت بها، ويظهر ذلك من خلال ذاكرة الجد وآخرين، واستحضار أيام جميلة خلت "يتراودون حول رياح ولّت، وصباحات

(1) نجمة النواتي(رواية)، غريب عسقلاني، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، 1999، ص 60، 61. وهي رواية تعرض للواقع السياسي والاجتماعي في غزة في مرحلة الستينيات وحتى حدوث الاحتلال في عام 1967، وانطلاق المقاومة.

ضاعت، وعيون صبايات عزّت في ملاعب روبين ووادي النمل، موسم الحسين وسهمود
الديك، وأرغول (أبو عقيل)، عن لصوص وشطار وبنات مثل الورد، وتباريح مواويل يحملها
البحر على صدر الموج، تغور في الأرض، تعود على ماء العين جرار ماء يفيض من جابية
الشيخ نور الظلام، ومن بئر بيارات أبو خضرة، والشيخ عمر...⁽¹⁾.

وتتفتح قلوبنا وتعيش للانطلاق عندما ينشد إبراهيم طوقان لفلسطين جنة الله في أرضه،
فيقول⁽²⁾:

مواطني الجلال والجمال والسناء والبهاء في ربك

والحياة والنجاة والهناء والرجاء في هواك

هل أراك

سالمًا مُنعمًا وغانمًا مُكرّمًا

هل أراك في عُـلاك

تبلغ السماءك

مواطني

مواطني الشباب لن يكلّ همه أن يستقل أو يبيد

نستقي من الردى ولن نكون للعدى كالعبيد

لا نريد

ذُننا المـؤبدا وعيشنا المُنكدا

لا نريد بل نعيـد

مجدنا التليد

(1) جفاف الحلق (رواية)، غريب عسقلاني، منشورات المركز الثقافي الفلسطيني ط1، ، رام الله، 2000،
ص16. وهي سيرة بعيون طفل ترصد رحيل أهالي مدينة المجدل في عام الكارثة 1948، وتحاول رسم

العلاقات الاجتماعية في سنوات اللجوء الأولى، وتنتهي عند العدوان الثلاثي 1956.
(2) حياة الأدب الفلسطيني الحديث (من أول النهضة.. حتى النكبة)، د. عبد الرحمن ياغي، منشورات وزارة
الثقافة الفلسطينية، ط2، 2001، ص295، 296.

موطني

موطني الحسام واليراع لا الكلام والنزاع رمزنا

مجدنا وعهدنا وواجب إلى الوفا يهزنا

عندنا

غاية تشرف وراية ترفرف

يا هنالك في علك

قاهراً عداك

وينطلق عبد الكريم الكرمي ليغني للقاء رفاقه، ويهتف قلبه مُرحباً بهم ويقول⁽¹⁾:

هتَف القلبُ مرحباً بالرفاق ما أُحيى اللقاءَ بعد الفراق
يا رفاقَ التاريخِ خلدتموه وهو تاريخُ ثورةٍ وانعتاق
بالبطولاتِ والمروءةِ والدمعِ وحُمُرِ الفِعالِ والأخلاقِ
إن حريّةَ الشعوبِ عروسٌ تتجلى ليلاً على العُشاقِ
قد صدّعتم صدرَ الليالي إليها وبَدَلتُم لها كريمَ الصّدّاقِ

وعاشت فلسطين أيام زهوها وشموخها في ظل الإسلام، وهنا يفتح عبد الكريم السبعاوي صفحات من التاريخ الإسلامي المجيد، فيذكر فتح بيت المقدس، وصلاة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فيها ، فيقول⁽²⁾:

فكان في القدس يومٌ ليس يعدله يومٌ به جاء، كلُّ العز، والكرم
صلى بها عمرُ الفاروقِ مُستلماً مهدَ الدياناتِ يزهو بينها الحرم

(1) الديوان، ص54.

(2) في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل خالد أبو علي، ص173.

• استشعار النكبة: وعي الأدب الفلسطيني متمثلاً بالشعراء والكتّاب والخطباء المخططات الصهيونية مبكراً، فقد أدركوا غاية الاحتلال في فلسطين، واتخذوا منه موقفاً نضالياً، "نعم، لقد صرخ الشعراء.. وزمجر الخطباء، وأنى الكتاب تحت نير المرحلة، وفي غلال المؤامرة، وكانت الغاية الأولى بين غايات تلك المرحلة هي التثوير والتثوير على ما يحاك للشعب الفلسطيني وأرضه..."⁽¹⁾، وكان الشاعر إسعاف النشاشيبي من أوائل الذين أحسوا بالخطر المحقق بفلسطين، إذ يقول في قصيدة له قالها عام 1910 مُحذراً من الخطر القادم⁽²⁾:

يا فتاة الحي جودي بالدماء	بدل الدمع إذا رمت البكاء
إن الاستعمار قد جاز المدى	دون أن يصدوه عن سير عداء
إنّ هذا الداء قد أمسى عياء	فتلافوه سريعاً بالدواء
إنها أوطانكم فاستيقظوا	لا تبيعوها لقوم دخلاء

أما عبد الرحيم محمود فقد انطلق من واقعه يستشرف المستقبل عندما خاطب الأمير سعود بن عبد العزيز في الرابع عشر من آب سنة 1935، عندما مرّ بقرية (عنبتا) بقوله⁽³⁾:

يا ذا الأمير أمام عينك شاعر	ضمت على الشكوى المريرة أضلعه
المسجد الأقصى أجتت تزوره	أم جنت من قبل الضياع تودعه
حُرْمٌ تباح لكل أوكع آبق	ولكل أفاق شريد أربعة
وغدا ما أدناه لا يبقى سوى	دمع لنا يهمي وسنّ تفرعه

فالشاعر يرى أن فلسطين تستباح من قبل الإنجليز والعصابات الصهيونية إذا ظل الموقف العربي الرسمي متخاذلاً عن نصره أبناء فلسطين، فإن اليهود سيحتلون فلسطين كلها.

ويصور الشاعر برهان الدين العبوشي في مسرحيته الشعرية (وطن الشهيد) في وقت مبكر أطماع اليهود في فلسطين، إذ يقول على لسان أحد زعماء الحركة الصهيونية⁽⁴⁾:

(1) في مرآة الثقافة الفلسطينية، د. نبيل خالد أبو علي، دار المقداد، ط1، غزة، 2004، ص47.

(2) حياة الأدب الفلسطيني الحديث، د. عبد الرحمن ياغي، ص167.

(3) الأعمال الكاملة، عبد الرحيم محمود، تحقيق: محمد عز الدين المناصرة، دار جرير، ط1، عمان، 2009، ص6.

(4) الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين، عبد الرحمن الكيالي، المؤسسة العربية، بيروت، 1982، ص24.

نعم، سوف نجلي أهلها عن ديارهم
ونقضي على الفلاح وهو عمادهم
سندخلها ألفاً وألفين خلسةً
ونوصد سبل العيش عنهم بأقفالٍ
ونغري وجوه القوم بالعرض البالي
وإن اعتراض القوم ليس بذى بال

لقد أدرك الشاعر بحسه الشعري غاية الحركة الصهيونية ومخططاتها، فهم يسعون للسيطرة على فلسطين وتشريد أهلها عن طريق تجويعهم ومحاربتهم في مصادر رزقهم وتضييق الخناق عليهم.

وكذلك قول إبراهيم طوقان مستشرفاً للنكبة قبل وقوعها⁽¹⁾:

أمامك أيها العربي يومٌ
وأنت كما عهدتك، لا تبالي
مصيرك بات يلمسه الأذاني
فلا رحبَ القصور غداً بباقي
لنا خصمان: ذو حَوْلٍ وطُولٍ
تواصلوا بينهم فأتى وبالاً
مناهج للإبادة واضحاتٌ
تشيب لهولاه سودُ النواصي
بغير مظاهر العبث الرّخاص
وسار حديثه بين الأقباصي
لساكنها ولا ضيق الخصاص
وآخر ذو احتيالٍ واقتصاصٍ
وإذلاً لنا ذاك التواصي
وبالحسنى تنفذُ والرصاصِ

وأيضاً قول برهان الدين العبوشي قبل وقوع الكارثة⁽²⁾:

لهفي على الليث المهدد غابهُ
والحرّ يدفع عن حماه بسيفه
فالمجد لا يُبنى بغير جماجم
إن كان الاستقلال لا يُؤخذ عثوةً
قد كان أجدر أن يموت بغابه
فإذا تحطّم سيفه فبنابه
والمجدُ تحميه سيوف غضابه
والموت فيه فنحن من أربابه

(1) قطوف من الأدب العربي، د. نبيل خالد أبو علي، دار المقداد، غزة، 2005، ص 139.

(2) في مرآة الثقافة الفلسطينية، د. نبيل خالد أبو علي، ص 48.

ولنقف مع الشاعر وديع البستاني، الذي كان يرقب الأحداث السياسية عن كثب، فقد رأى على باب غرفة في سراي يافا لوحة "الجمعية اليهودية..." فرأى فيها نواة الدولة اليهودية... فقال(1):

تريدونها جدا وجدا أقولها
فتحنا لكم صدراً مَدَدْنَا لكم يداً
عرفت طريق الهند من باب طارق
فأن تحسبونا الجسر بينيه عابر
أرى هوة تزداد عمقاً سحيقة
أرى الوطن القومي يعلو بناؤه
ونذكرهم نكرا ولست مسيطراً
من اليوم سراً إن أردتم أو جهرا
وإني لأخشى أن تديروا لنا ظهرا
إلى عدن عبر القناة ولا نكرا
فلا تهدموه في الطريق لكم جسرا
على عدوة أنتم ونحن على الأخرى
أرى غرفة في القصر تحجبه قصرا
مخافة يوم فيه لا تنفع الذكرى

وهكذا دخل الشعر ميدان المعركة، وحمل رسالة جليلة الشأن فأخذ الشاعر يرسل بصره الوجداني في أعماق القضايا، وأخذ يكشف للناس مواطئ أقدامهم، وينطلق معهم في كفاحهم، يرسم لهم خط سيرهم(2).

إلى جانب الشعراء، لم يتوان أيضاً الخطباء عن شرح أبعاد المؤامرة وخطورة الهجمة على الأرض الفلسطينية منذ وقف المحامي سليمان التاجي الفاروقي، والشيخ سليم اليعقوبي في محافل يافا ومنتدياتها، ثم خليل السكاكيني وإسعاف النشاشيبي في المحافل الجامعية... حتى جيل خليل بيدس وعجاج نويهض وخطبهم الثورية التثويرية التي بلغت تخوم النكبة وهي تحذر من ويلاتها، أما الكتاب فقد كانت القصة الثوب الذي ألبس أفكارهم ورؤاهم، فراحوا يشرحون قتامة الواقع وأسبابها، ويحذرون من ويلات المستقبل، مثل: مذكرات دجاجة لموسى إسحاق الحسيني، ومجموعة "مع الناس" لسيف الدين الإيراني، ومجموعة "الأخوات الحزينات" لنجاتي صدقي وغيرها من القصص التي استشراف أصحابها النكبة قبل حدوثها، وحاولوا جاهدين التحذير من ويلاتها(3).

(1) حياة الأدب الفلسطيني الحديث، عبد الرحمن ياغي، ص175، 176.

(2) السابق، ص176.

(3) قطوف من الأدب العربي، د. نبيل خالد أبو علي، ص139، 140.

ثالثاً: الأرض الفلسطينية بعد حلول النكبة

بعد سقوط الجزء الأكبر من فلسطين في أيار 1948، بما ترتّب على ذلك من تشريد ونفي لعدد كبير من الشعب الفلسطيني عن أرضه ووطنه، أصبح الهم الوطني يحتل جُلّ الصفحات التي تطمح إلى التعبير عن تجربة الاقتلاع والنفي، منطلقاً من الإحساس المكثف بالإحباط الذي مثّل حالة عارمة ومؤكدة على يقظة الذاكرة، والانشداد نحو إشراقات الماضي وترتبة الأرض.

التقت التجربة الأدبية الفلسطينية بمجملها آنذاك حول ذلك الحدث التحولي المأساوي في تاريخها فـ"منذ وقوع النكبة لم يتوان الأدب بفنونه المختلفة عن شرح أبعادها وتصوير مشاهدتها، واستنهاض الهمم الفلسطينية والعربية، والعمل على كسب تعاطف وتأييد العالم الحر، وتحريض الجميع ضد الأفعال الوحشية والمذابح الجماعية التي تعرّض لها الشعب الفلسطيني..."⁽¹⁾.

فعلى صعيد القصة، فقد أشار د. نبيل أبو علي في كتابه "قطوف من الأدب العربي" إلى كتابات محمود سيف الدين الإيراني ونجاتي صدقي وجبرا إبراهيم جبرا، وكتابات يوسف جاد الحق التي تُمثل مرحلة الصدمة، وتُصوّر أهوالها، ثم كتابات سميرة عزام -الساعة والإنسان مثلاً- التي تجسد مرحلة تأصيل الهوية الفلسطينية، ثم كتابات غسان كنفاني التي منها: رجال في الشمس، وما تبقى لكم، وأرض البرتقال الحزين، وموت سرير رقم 12، التي تمثل نضوج الأدب الفلسطيني كأدب قضية وضمود ومقاومة، ثم مرحلة ما بعد النكسة التي مثّل لها بسداسية الأيام الستة كأمّودج من الأدب الفلسطيني داخل الخط الأخضر، وكتابات جيل السبعينات، أمثال: إبراهيم الزنط⁽²⁾، وأكرم هنية، وزكي العيلة، وجمال بنورة، ثم الإبداعات الفلسطينية في الشتات مثل: كتابات ماجد أبو شرار، ومحمود شقير، وخليل السواحري⁽³⁾.

أما على صعيد الإبداع الشعري، فقد برز من بين الفلسطينيين الذين استطاعوا الصمود فوق أرض الآباء والأجداد بعد هزيمة 1948، عدد من الشعراء المجيدين الذين تصدّوا للواقع السياسي الذي عاشوه في ظل "الدولة العبرية"، ومن بين هؤلاء الشعراء راشد حسين، وتوفيق زياد، ومحمود درويش، وحنّا أبو حنا، وسميح القاسم، وغيرهم.

(1) في مرآة الثقافة الفلسطينية، د. نبيل خالد أبو علي، ص 52.

(2) انظر: التعريف به حاشية الفصل الأول، ص 24.

(3) قطوف من الأدب العربي، د. نبيل خالد أبو علي، ص 143.

وها نحن نسمع توفيق زياد، الذي جعل فلسطين محوراً أساسياً في قصيدته؛ لإدراكه أنها محور الصراع؛ لذلك رفض أساليب النفي والتهجير والقمع التي اتبعتها الصهاينة، وقاومها بوسائل شتى، وغرس في نفوس إخوانه الإصرار على البقاء في الوطن على الرغم مما يتعرضون له من قمع سلطات الاحتلال، يقول⁽¹⁾:

هنا على صدوركم باقون كالجدار

نتحدى

نجوع نعري ننشد الأشعار

ونملاً الشوارع الغضاب بالمظاهرات

ونملاً السجون كبرياء

ونصنع الأطفال جيلاً ثائراً وراء جيل

كأننا عشرون مستحيل، في اللد والرملة والجليل

ولنتأمل بما تجود به قريحة الشاعر راشد حسين، وهو يصور مشهداً من مشاهد النكبة في قوله⁽²⁾:

في الخيام السود، في الأغلال، في ظل جهنم

سَجَنُوا شعبي وأوصوه بألا يتكلم

هددوه بسياط الجنّد، بالموت المُحتم

أو بقطع اللقمة الننتة، إن يوماً تألم

ومضوا عنه وقالوا عِش سعيداً في جهنم

ها هنا في الخيمة السوداء بنتٌ وأبوها

وفتاةٌ لَفَظَتْ أنفاسها ما أسعفوها

(1) أدب المقاومة في فلسطين المحتلة (1948-1966)، غسان كنفاني، دار الآداب، (د.ط) بيروت، 1969، ص95.

(2) ديوان راشد حسين، دار العودة، (د.ط) بيروت، 1987، ص11، 12.

كفّوها بثياب الليل سوداً، كفّوها

دفنوها في ظلام الليل، سراً دفنوها

لينالوا مؤن الطفلة من فوق جهنم

لقد اسوتت خيام اللاجئين في عينيّ الشاعر؛ فراح يصور للعالم حال المشردين من أهله في واقعهم غير الآدمي الذي فرضته النكبة، ويعلن رفضه لهذا الواقع المذل الذي يُغلف صانعوه القهر بعبارات العطف وهبات هيئة الأمم⁽¹⁾.

وهذا هارون رشيد يرسلها صرخة قوية في وجه الزمن، ليقول لكل عربي: إنه لاجئ، وقد استبيح وطنه، ولكنه لن ينسى موعد الثأر، فيقول⁽²⁾:

أنا لاجئ، وطني استبيح وداسه غدر العدى

أنا نازح، داري هناك وكرمتي والمنتدى

وطني هناك ولن أظل بغيره متشردا

لي موعد في موطني، هيهات أنسى الموعدا

وقال سالم جبران يصف يوم النكبة⁽³⁾:

كان ليل النكبة أسود، لا إشعاع فيه

غير إشعاع القنابل

وهي تنصبُّ، على رأس قرى ليست تقاتل

ولماذا يا بلادي؟

قالت الأعين في رعب

ولم تفهم تفاصيل القضية

من خلال القلق المشبوب قالت

(1) في مرآة الثقافة الفلسطينية، د. نبيل خالد أبو علي، ص54.

(2) الأدب وقضية فلسطين، محمد مهدي علام، مطبعة العاني، (د.ط) بغداد، 1965، ص20.

(3) أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، غسان كنفاني، ص131.

ثم ألقينا البنائير على الأرض الشقية

لقد خلّفت النكبة اليأس والألم الذي يعتصر القلوب، وهذا نايف سليم يبعثها أنغاماً جريحة
باكية على الوطن الذي سرق وبيع للآخرين، فيقول⁽¹⁾:

ليس ما تنزفه يا قلّمي
ما كتاباتي وأشعاري سوى
أنا في أرض أجدادي هنا
سرقوا أرضي وأرضوا نفراً
وأجاعوني وصّبوا سمهم
واستبدّ الحزن بي حتى غدّت
ومثله قول عبد الرحيم محمود⁽²⁾:

يا شعب يا مسكين لم
قلّدت أمرك منّ بهم
لهفي عليك ألا ترى
تُنكبُ بنكبتك الشعوب
لا يرجعُ الحقُ الغصيبُ
يا شعبُ حولك ما يُريبُ!!

وكذلك سليم الزعنون الذي أطل من خلال رثاء خاله على فلسطين المحتلة عام 1948،
وأحيا مأساة النكبة وهجرة الأهل عن الديار، وذلك في قوله⁽³⁾:

نظرتُ إليك على البعادِ حبيبةً
"يافا" على الأمدادِ وهي "بثينة"
قد بادلتك الحبَّ وهي "شريفة"
غضبتُ لأنك لم تنم في حجرها
قد كان حرنك حزنها أن لا ترى
ذكرتك فيها قاضياً ومعلماً
ومجاهداً ومدافعاً عن حقها
حتى قضتُ يافا وكان صراخها
عرفتك يوماً يافعاً وجميلاً
تبكي وتذكرُ في الرجالِ "جميلاً"
عذراءُ ما اختارتُ سواك بديلاً
جسماً يفارقُ أرضها وسهولاً
عوداً حميداً للديارِ جميلاً
ورعتك فيها عالماً وجليلاً
يومَ البلاءِ تقاومُ الترحيلاً
ملاً البلادِ شامها والنيلاً

(1) أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، غسان كنفاني، ص 131.

(2) الأعمال الكاملة، عبد الرحيم محمود، ص 8.

(3) في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل خالد أبو علي، ص 156.

وَنُعْطِرُ أَفْئِدَتَنَا بِعَوَاطِفِ الشَّاعِرِ عَزِّ الدِّينِ الْمَنَاصِرَةِ وَهُوَ يَتَعَمَّقُ فِي تَصْوِيرِ مَأسَاةِ شَعْبِهِ، حِينَ يُصَوِّرُ رَحِيلَ الشَّعْبِ الْفَلَسْطِينِيِّ عَنِ وَطَنِهِ، وَقَدْ سَيَّطَرَتْ عَلَيْهِ الْأَحْزَانُ فِي قَصِيدَتِهِ "يَتَوَهَّجُ كِنَعَانَ"⁽¹⁾:

وداعاً نقول لعكا ويضطرب القلبُ

في قلعة البحر

دون نقوش ولا دولةٍ والنوارسُ فوق الفنارِ

الفنار الذي صار مأوى قراصنة البرِّ

فقد اضطرّ الفلسطيني للخروج من الوطن، وحلَّ محله قراصنة البر.

أما الشاعر سليمان دغش فقد بيّن اليأس لدى اللاجئين بسبب الفراق والهجرة، والذي جاء على شكل حوار⁽²⁾:

قالوا: انتهينا

قلتُ: أحبك

قلت: حبيبي، على جرحنا يولد المستحيل

إن مشهد الفراق هنا فسّر بأنه نهاية القضية، ولتصفية شعب فلسطين، ولكن أتى صوت المحب يقول لحبيبته الوطن: أحبك، فردت عليه الحبيبة: على جرحنا (جرح النكبة) يولد المستحيل وهو النصر.

إن قصص القتل والذبح والتتكيل ضد الفلسطينيين ماثلة في الأذهان، عمّقتها البعد التاريخي، وزاد من هولها ترسبها في الذاكرة لفترة طويلة، وهذه الذكريات لا تُنسى، بل تتداعى بآلامها، وهذه الآلام لا تفنى، بل تتجذر في العقل، وتغوص في أعماق الذاكرة، ومن ذكريات الكاتب التي تداعت على لسان الراوي مشهد مذبحه خان يونس "ويوم تغيّر سهم الريح، وكان

(1) دراسات في الأدب الفلسطيني، مجموعة من المؤلفين، منشورات جامعة القدس المفتوحة، ط1، القدس، فلسطين، 2003، ص176.

(2) الأرض والغربة والتحدي في شعر سليمان دغش، د. إبراهيم عياد، فلسطين، 2004، ص615، 616.

الوقت تشارين، اجتاحوا المدينة، واستباحوا القلعة والبيت، وسقف العريشة، وصارت المذبحة الأولى⁽¹⁾، وتفقدنا مع خان يونس الدم والأشلاء، وبقايا الروح...⁽²⁾.

وفي رواية نجمة النواتي التي ترصد حياة الفلسطينيين بعد النكبة وخصوصاً اللاجئين في قطاع غزة، وتعكس حياتهم وطموحاتهم وآمالهم في فترة الخمسينيات والستينيات، حيث ارتفعت وتيرة الطموحات والشعارات لتصطدم في النهاية بهزيمة مفاجئة سنة 1967، ولقد صورّ عسقلاني جانباً من آثار هذه الحرب، التي أزهدت الأرواح، وخلفت الجرحى والأيتام، والدمار والخراب والهموم الكثيرة وأصبح القتل منظرًا مألوفًا، وتقليدًا يهودياً معروفاً "...المعركة تشتد في تلة المنطار، واشتباك عند دوار القرم، وقذائف تشطب مخيم الزينكو في جباليا، ودبابات إسرائيلية تدخل خان يونس بأعلام عراقية وجزائرية... قتلى، ومجازر، ... وهج يخطف الأبصار... والانفجار يرجّ الدنيا، يبعثر القرميد... صياح وعويل، وألواح زينكو تتطاير في سماء المخيم..."⁽³⁾.

ويستحضر الأشخاص عبر حديثهم الذي يعتمد على الذاكرة في جزء كبير منه، مشهداً من مشاهد النكبة (النزوح) ومغادرة الأراضي، وما خلفه ذلك من حزن وحسرة في القلوب، إضافة إلى مشهد موت الأب بحسرتة "... وقدم العراقي أوراق اعتماده، فاستحضر حيفا وإجزم، وحافلات عسكرية عراقية تنقل الناس، والأيدي تلوح للأيدي، ابن سبع يطارد ذاكرة

(1) في الثالث من تشرين الثاني عام 1956، قام اليهود بارتكاب مجزرة خان يونس، والتي نفذها الصهاينة في المنطقة الشرقية: في خزاعة وعيسان وبني سهيلا، وفي المدينة، وفي المعسكر، وكانت ذروة القتل في منطقة الزنة: الفياضة، ومنطقة القرارة. وفي اليوم الخامس من تشرين الثاني وصلت إلى منطقة المواصي، وتل ريدان على شاطئ بحر خان يونس، واستمرت المجزرة متقطعة حتى يوم 1957/3/7... وراح ضحيتها أكثر من خمسمائة مواطن...

لقد قام الجنود الإسرائيليون بجمع الشباب من بيوتهم، وأوقفوهم على شكل صفوف تواجه الجدران، ثم أطلقوا عليهم الرصاص، وبعد سقوط هؤلاء الشباب على الأرض، عادوا إلى إطلاق النار عليهم مرة ثانية؛ ليتأكدوا من قتلهم جميعاً... وهناك طريقة أخرى استخدمها الإسرائيليون في قتل المدنيين... وهي أنهم كانوا يجمعون الشباب، ويأمرونهم بالجري نحو الجدار، ثم يقومون بإطلاق النار عليهم... للمزيد، انظر: خان يونس وشهداؤها (1956 المذبحة والصمود)، د. إحسان خليل الأغا، مركز فجر للطباعة والنشر، ط1، مصر الجديدة، 1997، ص14، 35. وانظر: خان يونس ماضيها وحاضرها، د. محمد علي عمر الفراء، دار الكرمل، ط1، عمان، الأردن، 1998، ص226، 228.

(2) عزم على وتر حزين (مجموعة قصصية) قصة (صبارة عبد الحميد)، غريب عسقلاني، ص56. قصة (صبارة عبد الحميد) سيرة شبه روائية للشاعر الصعلوك عبد الحميد طقش.

(3) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص102.

طفلة... تجمّعوا من القرى الثلاث، ومضوا في ذيول الفيلق العراقي، بالقليل من المتاع، رحلوا، تركوا العمة بدرية الصبية، شامخة تلوح، تسقط دموعها على الأرض، الذاكرة الطفلة تؤكد أن دموعها بللت بقعة من الأرض كبيرة، غاصت فيها بدرية...

- سابقى في البيت الكبير حتى تعودوا.

وظلت حسرة عمتي بدرية في قلب أبي، وظل ينوح أرضي وعرضي كيف هانت علي، حتى مات⁽¹⁾.

لقد احتلت (إسرائيل) قطاع غزة سنة 1967، بعد هزيمتها لجيوش العرب في مصر وسوريا، هذا القطاع ببرّه وبحره، الذي كان جزءاً لا يتجزأ من الوطن، يدافع عنه أبناؤه كما يدافعون عن تراب وطنهم في المقهى يتحدثون عن الحرب وجيوش العرب في مصر وسوريا، وعن المغاوير الشوام، والقوات العربية التي تمركزت في الضفة الغربية، وعن النواتي... وفرد الكراداخ المدلى في جرابه... عن المدفع المثبت في مقدمة اللنش، والشاويش الرابض خلفه... والمعلم العيماوي، الأسد العجوز القابض على الدفة... واللنش يقوم بأعمال الدورية في الماء جيئة وذهاباً من الميناء إلى تلة المطخ...⁽²⁾.

جاء احتلال سنة 1967 لكل فلسطين، نتيجة حالة القصور الذاتي للأمة العربية. لقد قام الاحتلال بأعمال وحشية ضد هذا الشعب من خلال القصف بالمدفعية، حيث القتل والدمار الواسع، وانعكس ذلك في نفوس الناس فزعاً وإحباطاً "غزة ساحة الحرب، خطوطها الأمامية هي خطوطها الخلفية، والبحر ظهيرها.. الحواكير والكروم والأحراش فضاء واسع... صوت المدفعية يسيطر على الموجودات... قذائف من جميع العيارات.. وأخبار عن.. التلة الحمراء.. ومحاولات العدو لاقتحام الموقع تبوء بالفشل أكثر من مرة.. عشرات القتلى والحرى.. الأخبار متضاربة ومتباينة... صراخ يمزق الحارة، يشق هدير القصف... أم العبد سمور تشق الثوب وسط الزقاق... تعفر وجهها بالتراب وتتمرغ.. يحط الوجود على الناس.. وتصاب صفة بالخرس.. حديث عن قذيفة أخذت بيت وعائلة محمد سمور... لم ينج منهم غير الولد الذي كان خارج البيت، ظل يجري حتى ارتدى في حضن عمته... رفراف في حضنها.. يصيح: ماتوا.. ماتوا.. أخذهم المدفع..."⁽³⁾.

(1) نجمة النواتي (رواية)، غريب عسقلاني، ص75، 76.

(2) السابق، ص98.

(3) السابق، ص100، 101.

إن الألم بعض من خبرتنا، والمعاناة توأمها، نشترى الوطن بالأرواح، ونروي الأرض بالدماء، ونحتسب عند الله الشهداء. إن التضحية والعطاء والرباط قدرنا في ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، ولقد تولدت في النفوس الرغبة بضرورة القتال وحميته، وتستشرق آفاق المقاومة الجديدة، التي توجت بالوصول إلى صيغة منظمة التحرير الفلسطينية عام 1964 باعتبارها الصيغة المناسبة والجديّة للنضال الحقيقي، الذي يمكن أن يؤدي إلى تحرير الأرض المغتصبة "...وأبو خليل يتحدث عن تشكيل جيش التحرير، ومراكز التجنيد الإجباري، والعريشة التي حرقوها، وأقاموا بدلاً منها خيمة استطلاع للحرش الذي أصبح ساحة عارئة للتدريب على الرماية، وأصبح اسمها المطخ"⁽¹⁾. إذن المقاومة هي الأمل في الخلاص والعودة، والمعبر إلى الوطن سيكون من خلال البحر والاستعداد للمعركة، "يتساءل خميس عن قيادات سياسية وعسكرية وفدت مع الشقيري من مصر وسوريا والعراق، وعن لجان ومؤتمرات، وعن رجال يقطعون الماء والأسلاك..."⁽²⁾.

إن الانضمام إلى التجنيد، والالتحاق بالجيش استعداداً للمقاومة قبل هزيمة 1967 مظهر من مظاهر الوطنية، والتمسك بالجهاد سبيلاً لتحرير الأرض والإنسان في فترة المد الناصري، وتصاعد النبرة باتجاه القومية العربية، ومن خلال المزج بين الحوار والسرد الذي يضيف على الحركة الروائية الحيوية والجازبية في هذا الحوار الذي دار بين حمدان والعراقي "وفي الليل كان حمدان والعراقي يسيران على الشاطئ، ويداعبان حواف الماء..."

- صرّح الشقيري أن المعركة قادمة لا محالة.
- لو فعلها عبد الناصر، ويطرد الدوليين وتقوم القيامة.
- لعله ينتظر حتى يكتمل جيشنا وعتادنا.
- جيشنا مكتمل بالعرب يا حمدان، معركتنا قومية... نحن وحدنا لا نستطيع تحرير الأرض"⁽³⁾. وفي مقطع آخر من الرواية، حيث التفاف الناس حول الإذاعة؛ لاستطلاع الأخبار قبيل الحرب، قال أبو خليل: - عبد الناصر طلب رحيل قوات الطوارئ الدولية في غزة وسيناء، وإسرائيل تحذر من إغلاق المضائق.
- هي الحرب إذن؟
- نحن في حالة طوارئ.
- التجنيد الشعبي"⁽⁴⁾.

(1) نجمة النواتي (رواية)، غريب عسقلاني، ص 67.

(2) السابق.

(3) السابق، ص 79.

(4) السابق، ص 86.

وترصد الرواية صوراً للبطولات التي كانت تقوم بها مجموعات الفدائيين في الخمسينيات والستينيات لتدخل الأرض المحتلة، قال البدوي:

- الليلة يعبرون من بيارة الباشا⁽¹⁾.
- ودورية الدوليين؟
- سيكون العبور وقت تغيير الدورية، واستلام الهنود⁽²⁾ الموقع، الضابط الهندي مسلم، ووعده بالمساعدة...
- والدليل⁽³⁾؟
- من عشائر الهزيل.
- الغدر!⁽⁴⁾.

أما الشاعر معين بسيسو، فقد أثار الحماس في النفوس من خلال مخاطبته رفيقه، وحثه على المقاومة في قوله⁽⁵⁾:

أنا إن سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في الكفاح

واحمل سلاحك لا يُخفك دمي يسيل من السلاح

أما الشاعر عبد الرحيم محمود الذي خاض معارك الكفاح في فلسطين، واستشهد في معركة الشجرة سنة 1948، كان يعرف الأعباء التي ينبغي على المواطن أن يحملها؛ ليكون بطلاً من أبطال الكفاح، وذلك من خلال قصيدته "الشهيد"، فيقول⁽⁶⁾:

(1) بيارة الباشا: مكان في قرية بيت حانون الحدودية شمال مدينة غزة، ومنه كانت تنطلق مجموعات الفدائيين لتدخل الأرض المحتلة، وكانت هذه المجموعات بقيادة ضابط مصري، اغتيل فيما بعد على أيدي عملاء (إسرائيل)، واسمه مصطفى حافظ.

(2) الهنود: أفراد قوات الطوارئ الدولية من الهند، وكانوا متعاطفين مع الشعب الفلسطيني، وبخاصة في تلك المرحلة التي شهدت بروز منظمة عدم الانحياز، وتعاضم دورها، وكان أبرز قادتها نهرو، وتيتو، وعبد الناصر.

(3) الدليل البدوي: الشك في هذا الدليل يعود إلى دور بدو سيناء في عام 1956، عندما هُزمت القوات المصرية، وانسحب أفرادها عبر الصحراء، ومعهم بعض الأفراد المتطوعين الفلسطينيين، فقام بعض البدو باستلاب سلاحهم والغدر بهم، وتسليمهم للقوات الإسرائيلية... دراسات في الأدب الفلسطيني، جامعة القدس المفتوحة، مجموعة من المؤلفين، ص269.

(4) نجمة النواتي (رواية)، غريب عسقلاني، ص4.

(5) في مرآة الأدب الفلسطيني، د. نبيل خالد أبو علي، ص55.

(6) الأعمال الكاملة، عبد الرحيم محمود، ص6، 37.

سأحملُ رُوحِي على راحتي وألقي بها في مَهَاوي الردى
فإما حياةٌ، تَسرُّ الصديق وإما ممات، يُغَيظ العدى
ونفسُ الشَريف لها غايتان ورودُ المنايا، ونيل المنى

ويفصح محمود درويش خير إفصاح في قصيدته "بطاقة هوية"، عندما يدرك أن الحفاظ على الهوية الفلسطينية حفاظ على العروبة⁽¹⁾:

سجل!

أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألف

وأطفالي ثمانية

وتاسعهم سيأتي بعد صيف.

(1) ديوان محمود درويش، دار العودة، ط14، بيروت، مجلد1، 1996، ص71.

رابعاً: أرض الشتات والمخيمات ونثرياتها

كان من نتائج نكبة 1948 تدفق أمواج اللاجئين على البلاد العربية المجاورة على أثر تراجع الجيوش العربية، وقيام الصهاينة بالمجازر الجماعية، وهام الفلسطيني على وجهه، عارياً جائعاً، لا وطن له ولا بيت "ووجد النازحون أنفسهم وقد استقروا في مكعبات متراصة من الخيام التي أقامتها لهم وكالة غوث اللاجئين... تشكلت التجمعات التي عُرفت باسم (المخيمات)، والتي كانت عبارة عن خيام... تحوّلت إلى معسكرات من الأكواخ المبنية من الطين والزنك أو القرميد... ومنذ البداية شكّل المخيم صورة مهينة من الفقر والجوع وانتظار ما تجود به وكالة الغوث، مع قسوة الظروف الطبيعية، التي بدورها لم ترحم اللاجئين، بل أغرقتهم في المطر والوحل، وأذاقتهم البرد القارس وأرسلت إليهم الرياح العاتية، التي لم تتمكن الخيام من الصمود أمامها، وكأن الطبيعة تحالفت مع النكبة، ومع أعداء الشعب الفلسطيني"⁽¹⁾.

إذن لقد أوى الفلسطيني إلى الخيمة السوداء، يمزج أحزانه، وتترأى أمام عينيه أطياف أرضه، وبات يحيا حياة الحرمان والتشريد، يعتصر الألم قلبه، والحقد صدره، وهو ينتظر الفجر في غياهب الظلام بقلب واجف وعين دامعة. وقد انبرى الشعراء الفلسطينيون الذين عاشوا النكبة واللجوء لتصوير مظاهر البؤس والشقاء والمعاناة والتشرد التي عاشها اللاجئين، وقد ظهرت مجموعة من الدواوين الشعرية تحمل عنوان اللاجئين أو المشرد أو الغريب لشعراء أمثال: رجا سمرين، ويوسف الخطيب، وفدوى طوقان... فقد كانت المأساة مَعِيناً لا ينضب، يمد الأدباء والشعراء بأروع ما أبدعوا، وأعذب ما غنوا...⁽²⁾.

ومن المؤكد أنني لا أستطيع أن أقف في هذا المقام على كل ما أنتجه الشعراء الفلسطينيون من وحي المأساة، ولكنني سأقف على مجموعة من النصوص لكي نرى من خلالها معاناة الإنسان الفلسطيني المشرد، ولنتعرف على الواقع المأساوي الذي عاشه فلسطينيو الشتات، ولنر كيف نقل الشعراء هذا الواقع إلى واقع فني متميز.

وقد مثّلت خيمة اللاجئين معاناة الفلسطيني المهجّر، وهي وصمة عار في جبين الدهر والإنسانية، ورمز بؤس الفلسطيني وشقائه، وهي موطن المجاعة والفقر والمرض، وفيها انطوى الفلسطيني على نفسه، وراح يبكي الأيام الغابرة والمجد القديم، ولكن المأساة جعلته يمد يده إلى

(1) الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية (1952، 1982) علي محمد عودة، مكتبة دار المنارة، ط2، 1997، ص 171، 172.

(2) الأدب العربي المعاصر في فلسطين من سنة (1860 - 1960)، د. كامل السوافيري، دار المعارف، (د.ط) القاهرة، 1977، ص 81، 85 بتصرف.

ما تُقدِّمه وكالة الغوث من عون له، وقد عمد الشاعر رجا سمرين في قصيدته "خيام اللاجئين" في تصوير معاناة الفلسطينيين المشردين إلى أسلوب المقابلة بين واقعين: واقع الفلسطيني في المخيمات حيث الذل والجوع، وواقعه قبل المأساة حيث كان يعيش في وطنه عيشة كريمة مليئة بالفرح والسرور والأحلام الجميلة، ولكن قوى الظلم أبت إلا أن تسلبه تلك السعادة، فيقول⁽¹⁾:

يا خياماً في الفقر مثل القبور	وصمة عار أنت في جبين الدهور
والناس في جميع العصور	يا نشاز الأنعام يا سبة التاريخ
على رسم حقنا المهـدور	أنت مأوى للبؤس شيدك الظلم
بأيد مخضوبة بالشرور	أنت سفر الآلام سطرّك البغي
يسفح الدمع في دجى الديجور	كم حوى نسجك الإرث عزيزاً
قد قضاه مُنعماً في القصور	راثياً عيشة الكريم وعهداً
يقرع الكأس من مُدام السرور	يوم أن كان في الديار كريماً

وقد صور الشاعر معين بسيسو في قصيدته (السيول) قسوة الحياة التي عاشها اللاجئين في تلك الخيام التي لم تستطع الصمود أمام الرياح والأمطار؛ فجرتها السيول كما جرفت متاع سكانها البائس، وقضت على كثير من قاطنيها، وألقت أطفالهم بعيداً عن المكان، فيقول⁽²⁾:

من ذلك الشعب أو من ذلك البلد	لم يترك السيل غير الحبل والوتد
تلك الوحول بقاياهم من الولد	وغير بعض العرايا الساحبين على
منفوخة لم تزل مجهولة العدد	وغير ما شاهدت عينك من جنث
هنا بقايا رغيـف عالق بيد	هنا حطام هنا موت هنا غرق

(1) ديوان رجا سمرين، الكويت، ط1، 1985، ص171.

(2) الأعمال الشعرية الكاملة، معين بسيسو، دار العودة، ط3 بيروت، 1987، ص56.

لقد أصبحت الخيمة الرمز الكريه للنكبة، لا حنان فيها ولا حب، بل بأس وهم، وفراغ وهوان، وهذا بعض ما يلاقيه اللاجئ في هذه الخيمة المشدودة في الأرض، الرافعة شراعها كالأكفان، والتي أجاد الشاعر كمال ناصر في وصفها عندما قال⁽¹⁾:

مذعورة في رحاب المكان	مصلوبة منسية في الزمان
حيرى على أوهامها في المدى	لا حُب في سمائها لا حنان
مشدودة في الأرض معصوبة	كأنما شدت بأيدي الهوان
يا خيمتي السوداء ظلي هنا	ذكرى على أشلاء حكم جبان

وقدّم (أبو سلمى) صورة أو مشهد عن شقاء اللاجئين مُبلّلة بالدمع، مغموسة بالحزن والألم، موضحاً صورة اللاجئين وشقائهم، فإذا الأيتام في بكاء دائم، والصبايا يهوين كالشهب، والشيوخ يمشون متقلين بالخطوب، وكأنهم يجرون أعوامهم جراً، فيقول⁽²⁾:

فهنا الأيتام في أدمعهم	وهنا تهوي العذارى مثل شُهْبٍ
وشيوخ حملوا أعوامهم	مُنْقَلاتٍ بشظايا كُلِّ حَظْبٍ
هم ضحايا الظلم، هل تعرفهم؟	إنهم أهلي، على الدهر، وصحبي

ونتيجة لذلك كان من الطبيعي أن يقيم اللاجئ الفلسطيني علاقة عدائية مع المخيم، علاقة تقوم على النفور والرفض لذلك الواقع، الذي يُذكره بما آل إليه حاله من فقد الأرض والحرية والأمن والاستقرار، إن هذه العلاقة بكل مدلولاتها العدائية مع المخيم تتغير حين يتحول المخيم نفسه إلى رمز للمقاومة والتحدي والكرامة⁽³⁾.

وكان شعراء تلك المرحلة من أوائل مَنْ نادوا ودعوا إلى الكفاح المسلح سبيلاً للعودة إلى الديار التي تركوها مكرهين، وهذا الشاعر يوسف الخطيب يؤكد أن العودة لن تكون بغير السلاح، فيقول⁽⁴⁾:

(1) الأدب وقضية فلسطين، محمد مهدي علام، ص 17.

(2) ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي)، ص 156.

(3) الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية، على محمد عودة، ص 173، 174 بتصرف.

(4) الأدب العربي المعاصر في فلسطين، كامل السوافيري، ص 245.

للميتين دموعهم وجراحهم
سأعود في الصباح الندي لموطني
ولجذوتي ساح الوغى والثار
وغدا يرف على جبيني النار

ويقول رجا سمرين داعياً سكان المخيمات للجهاد⁽¹⁾:

يا فلسطين والحياة كفاح
سوف نأتيك كالنصور جموعاً
ونفير التحرير ماض ينادي
سوف يروي التاريخ عنا بأننا
نملأ في الذرى والوهاد
أمة قد صحت بعيد الرقاد

لقد أدرك الفلسطيني المهجر أن الثورة والاعتماد على الذات في تحرير الوطن سبيله
للفكاك من الأحزان والآهات. ورفض الشاعر أحمد دحبور أن يسمي من عرف طريق الثورة
لاجئاً، بل أصبح صقراً يقدم روحه في سبيل وطنه، فيقول⁽²⁾:

ذلك الصقر المقاتل

أسرجت أعوامه العشرون خيل العاصفة

كان في جبهته سبع سنابل

لمها حتى يصد البؤس عند سود المنازل

في فلسطين الرؤوم النازفة

وما فتئ الفلسطينيون يُهجّرون من مدنهم وقراهم حتى بدأوا في التفكير بالعودة، فكان
الحنين إلى الوطن اللحن الذي غناه أكثر شعراء النكبة، فلنستمع إلى سميح القاسم الذي صور
حنين الفلسطيني المشرّد إلى الوطن في قصيدته "سمعتهم"⁽³⁾:

سمعتهم، وهم يتقلّبون

من الحريق إلى الحريق

لا بد من يافا... وإن طال الطريق

(1) الديوان، ص160.

(2) ديوان أحمد دحبور، دار العودة، (د.ط) بيروت، 1983، ص190، 191.

(3) ديوان سميح القاسم، دار الهدى، القدس، المجلد1، ط1، 1991، ص374.

ومثله عبد الكريم السبعأوي الذي يحلم بالعودة إلى ربوع الوطن، ويبين شرط العودة التي يراها في عودة زمن العزة والكرامة العربية، زمن الوحدة وزوال الحواجز والحدود بين الأثقاء العرب⁽¹⁾:

وقال صحابي: الفرار أم الأسر!؟

قلت الفرار.. وصبراً جميل

إلى أن يعود الزمانُ

كهينته عند خلق السماوات والأرض

يُفرخ صقرك بيضته في رماد الجليل

تَصَبِّين دجلة في النيل

يطرح نخل الخليج على قمم الأطلسي

ينور زيتون تونس في سفح أربيل

تتبع زمزم من صخرة في الخليل

وقول أبي سلمى في قصيدته (داري)، التي يحنُّ فيها إلى ملاعبه وذكرياته الحلوة التي خَلَّفها وراءه⁽²⁾:

حالمة بالمجد والغارِ
فعطرت أيام آذارِ
تهدي إليها وشي أستارِ
تاريخ أشواقِي وآثاري
تروي حكاياتي وأخباري

داري التي أغفت على ربوة
تَفْتَح الزهر على خدها
الشمس لا تضحك إلا لها
والتينة الخضراء في ظلها
والعين خلف الدار في المنحنى

(1) في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل خالد أبو علي، ص 112.

(2) الديوان، ص 20، 21.

ويحنّ الشاعر عبد الرحيم محمود إلى الوطن بمشاعر تتبض بالصدق والحياة، وتخفق بأنسام الرقة والحنان، فلنصغ إلى هذا اللحن العذب الذي نسمع فيه خفقات قلب الشاعر⁽¹⁾:

يا بلادي يا مُنى قلبي، إن
لا أرى الجنة إن أُدخِلتْها
مُنيتي في غُرْبتي قبل الردى
ظَمِنْتَ نفسي لمغناك، فهل
فِيصَلِّي القلبُ في كعبتهِ
وَتَمُرِّينَ بيمناكِ على
ويُغني الطيرُ في أشجاره
ويلاقي كلِّ ألفِ ألفه

تسلمي لي أنتِ، فالدنيا هدرُ
وهي خلْوٌ منك، إلا كَسَقِرُ
أنْ أملي من مجاليكِ البصرُ
يُطفئُ الحرقه بالعودِ القدرُ؟
وتَضُمُّ الروحُ قُدسي الحجرُ
جَسَدَ أضناه في البعدِ السهرُ
نغمًا يُرقِصُ، أعطافَ الشجرُ
ويُلَمِّنُ الشتيتَ المنتشر

وتتناغم أصوات الشعراء في داخل الوطن وخارجه مؤكدة على حق الفلسطيني وعلى ضرورة التضحية وعلى أن العودة حتمية والنصر آت، من ذلك قول سميح القاسم⁽²⁾:

ربما تسلبني آخر شبر من ترابي
ربما تطعم للسجن شبابي
ربما تسطو على ميراث جدّي
من أثاث... وأوراق... وخباب
ربما تحرق أشعاري وكتبي
ربما تطعم لحمي للكلاب
ربما تبقى على قرينتنا كابوس رعب
يا عدو الشمس.. لكن.. لن أساوم..
وإلى آخر نبض في عروقي سأقاوم!

(1) الأعمال الكاملة، عبد الرحيم محمود، ص 61، 62.

(2) في مرآة الثقافة الفلسطينية، د. نبيل أبو علي، ص 57، 58.

وصوّر الشاعر محمود درويش في قصيدته "الجسر" مصير اللاجئين الفلسطينيين الذين يحاولون العودة إلى الوطن بغير دماء، فإنهم يسقطون قبل أن يخطوا خطوتهم على جسر العودة، فيقول⁽¹⁾:

مشياً على الأقدام

أو زحفاً على الأيدي نعود

قالوا

وكان الصخر يضر

والمساء يداً تقود

لم يعرفوا أن الطريق إلى الطريق

دم ومصيدة، ويبد

ولم يستطع الفلسطيني المنفي أن ينسجم مع ديار الغربة؛ ولهذا ظلت المنافي العربية غريبة عنه، وقد أكد عز الدين المناصرة هذه القضية، فهو يرى أن الأماكن التي عاش فيها في المنافي لم تحنّ عليه ولم تحمه من بطش الأنظمة، ولن تتذكره، فهو فيها عابر سبيل على الرغم من إخلاصه لها في حين أن كل ذرة تراب في قريته، وكل شجرة مغروسة في منزله تتذكره وتترقب عودته، ويقول في ذلك⁽²⁾:

أجنّ لأن الشجر الواقف في مطلع صيدا.. لن يذكرني

وكذلك غابات عجلون.. ستنساني

شجرة دراق في مدخل قريتنا تبقى

في الرف الأصلي لذاكرتي.. في شرياني

وكذلك أعرف مقهى شعبياً في باب دمشق.. سينساني

(1) الديوان، مجلد 1، ص 353.

(2) الأعمال الشعرية الكاملة، محمد عز الدين المناصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (د.ط) بيروت،

1994، ص 37.

مقهى الفيشاوي، أخذوني لمحاكمهم وهو يراني

جفرا شاهدة تعشقتني دون شروط مسبقة

وقد كانت مرارة الغربة من المعاني التي ألحّت على أذهان الشعراء، وهذا خليل زقطان يتحدث عنها حديث مَنْ أفقدته الغربة الشعور بذاته، فيقول⁽¹⁾:

أنا قد صحتُ على الجراح	تسيل مع بعضي لبعضي
أنا قد صحتُ وإذ أنا	مُلقي بأرض غير أرضي
أنا مَنْ أنا؟ لا شيء	والأعداء رابضة بغابي
أنا ليس يجديني البكاء	أو التحدث عن مُصابي
دون الرجوع إلى الحمى	نزع القيود من الرقاب
ما هذه الأغلال؟ ما معنى	نزوحني واغترابي

هذا بالنسبة للشعر، أما على صعيد القصة فقد "تميز الفلسطينيون بقصص جيد قبل كارثة الاستعمار الصهيوني، فلما أتى على وطنهم، وتوزّعهم العالم العربي، حملوا مأساتهم فوق رؤوسهم، وفي قلوبهم، وكانوا أمناء مع واقعهم، وحوله دار قصصهم، من أولئك الذين عايشوا المأساة منذ البدء، الذين تفتّحت عيونهم يوماً فوجدوا أنفسهم لاجئين أو منفين أو مهاجرين... مثل غسان كنفاني، وإبراهيم أبو ناب، ووليد رباح، وعلي زين الدين، وآخرين"⁽²⁾.

لقد تكررت مقاطع تصوير المخيم في روايات فلسطينية عديدة، منها "أم سعد" لغسان كنفاني، وروايات غريب عسقلاني، وعبد الله تايه، وزكي العيلة، وعثمان أبو ججوح، و"تنصف القصة الفلسطينية التي عالجت حياة المخيم تحت الاحتلال بجِدّة النغمة، وعلوّ النبرة، إلى جانب التسجيل والوصف. أما مضمونها العام فهو الإصرار على التحدي، والشعور بالمرارة في ظل واقع تعيس... ومما يلفت النظر أن جُلّ الكتاب الذين عالجوا قصص المخيم الفلسطيني هم من سكانه المقيمين"⁽³⁾.

(1) الأدب وقضية فلسطين، محمد مهدي علام، ص20.

(2) القصة القصيرة دراسات ومختارات، الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط6 القاهرة، 1992، ص 125، 126.

(3) دراسات نقدية في الأدب الفلسطيني المحلي، عزت الغزاوي وآخرون، دار الكتاب، ط1 سميراميس، القدس، 1993، ص11.

ففي رواية "زمن الانتباه" مثلاً، لغريب عسقلاني، يبرز المخيم بصورة جديدة، المخيم الذي يعاني من حصار القوات الصهيونية، ويخضع للبطش، وتكرر فيه حالات الطوق والتفتيش، المخيم الذي يعيش سكانه زمن الانتباه "انتبهوا، انتبهوا... المخيم محاصر، ممنوع التجول وانتبهوا.. انتبهوا.."⁽¹⁾، لتبدأ بعدها سلسلة القمع واقتحام البيوت القرميدية الفقيرة، ولتبدأ الاستجابات والإهانات. وتجسد رواية "الطوق" المخيم داخل فلسطين، فهي تصور الحياة داخل مخيم محاصر بالأسلاك الشائكة والقوات الصهيونية، وفوق محاصرته بالجنود والأسلاك ومنع التجول، فهو ملتف بالجوع والقهر والليل والبرد والخوف والتصميم على التحدي والمواجهة، ولقد صورَ الكاتب ردود الأفعال المتباينة على الطوق واقتحام البيوت ليلاً "انسرب ضوء قوي من فرجات القرميد، أضاء الغرف، أشعلوا كشافاتهم، يقتحمون البيوت، أقدام تدب، أجساد تعلي الجدران، وأجزاء البنادق تتحرك والأفئدة تصعد، طرقات سريعة، أشياء ترتطم بالأرض، اندفعوا... زخات رصاص ملأت السماء كأن الأرض والسقوف انزعت أنابيب غضب، انتشروا في الدار..."⁽²⁾، فالأرض تهتز والشمس تتعثر، ومن داخل زحام البيوت المتواضعة التي تم نسفها تبرز الدالية وربما يبرعم الصباح... وانفجار مكتوم، ثم انهيار، وكان زقاق ثم أصبح مساحة صغيرة عريانة، تتوسطها كومة ركامات، وفروع الدالية تخرج من بين الركام معفرة غباراً وتراباً..."⁽³⁾.

ويبرز في الرواية من خلال مقاطع عديدة معاناة اللاجئين، فنلاحظ وصفاً لبيوت المخيم، وضيق الحياة والفقر والبؤس وشظف العيش والاحتفاظ "وبيوت المخيم المتراسة كعلب الكبريت، غيبت الأدميين في جوفها حتى الانتفاخ، فيما راحت رياح تشرين تصفر جدران الأزقة الضيقة.. تصغر.. تتلوى أصواتاً شيطانية حول السقوف الواطئة، تغربلها شبابيك الزينكو وفرجات القرميد مخيماً جليدياً، يجثم على الأجساد المحشورة في الغرف، تتلوى الأجساد وتتقلص على ذاتها، تقنع الرب الذي في السماء، بإمكانية تحويلها إلى ديدان تجيد

(1) زمن الانتباه (رواية)، غريب عسقلاني، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ط1 غزة، 1983، ص81، 82. هذه الرواية تتناول دور المرأة في المقاومة المسلحة، ودور اليسار الفلسطيني في تفجير الثورة.

(2) الطوق (رواية)، غريب عسقلاني، دار الكاتب، القدس، 1979، ص68. وهي إعادة إنتاج أحداث أول طوق يتعرض له القطاع، وهو حدث الطوق الشهير الذي فرض على أجزاء من مخيم الشاطئ في عام 1970، وكيف تفاعل الناس داخل وخارج الطوق.

(3) السابق، ص112.

الاختفاء في عروق الأرض...⁽¹⁾، لقد انعدمت في ذلك المشهد وسائل العيش والإمكانات الاقتصادية التي تسمح بمزاولة المهن، لقد غابت الأرض التي هي رأس مالهم الوحيد.

لقد أصبح الفلسطيني بين ليلة وضحاها بعيداً عن أرضه التي بات يرتع فيها الغرباء الغاصبون، وأضحى مشرداً في مخيمات لا تطاق، حياة كلها بؤس وفقر وذل وحصار وخوف، حياة يصعب على العقل البشري تصورها "البيوت تحشر الأحياء، الرجال والنساء والبط والأوز والدجاج والحيوانات الناطقة وغير الناطقة، في الغرف الفقيرة والتجول ممنوع... النساء يصرخن على الأطفال مخافة التسلل إلى الشوارع، الله وحده أعلم بما في الشوارع، التجول... الموت، الخوف والإرهاب في الشوارع الفارغة"⁽²⁾، وبذلك يصور الكاتب كيف أصبح مشرداً، يغل الفقر أيامه، وتتقاذفه المحن، بعد رغد العيش، والحياة السعيدة.

أما رواية (نجمة النواتي) فتبين الحياة الثرية في المخيمات، وتعرفنا على جانب هام من حياة اللاجئين بعد نكبة 1948، والتفاعلات التي خضعوا لها بعد ذلك. وإنني سأتناول ما تطرق له غريب لأوضاع اللاجئين في المخيم، هذا الخليط من الناس الذين سُردوا من مدنهم وقراهم، ليجدوا أنفسهم فيما عُرف بالمخيم، رجالاً ونساءً، صيادين وعمالاً، ومتقنين ومناضلين، طردتهم النكبة الأولى، ولعل أفسى ما كان في علاقة الفلسطيني بالمخيم، ذلك الاستجداء من وكالة الغوث، كم كان مهيناً ومذلاً وموجعاً، وهذا الذي يرفضه (أبو خليل)، "ونهايات الليل في البيت الرابض عند طرف المخيم، يتهامس فيها سكان المخيم، يتناقلون أحوال الرجل الرياضي البنية... والذي لم يستجد من وكالة الغوث مثلهم، بل أقامه في مواجهة البحر يدير ظهره للمخيم"⁽³⁾، لقد أقام (أبو خليل) بيته في مواجهة البحر، وكأنه يرفض اللجوء والاستجداء، ولأن البحر سيأخذه يوماً إلى الوطن.

يعيش الفلسطيني الذل المادي والنفسي، ويعاني من المخيم ووضعه البائس فيه "حتى الغيوم، تتحالف مع الصقيع على القلوب الواجفة في البيوت الواطئة... من كل المطارح رحلتهم... في الأرحام كنتم، وعلى صدور الأمهات الخائفات الجائعات، تجمّعت في الخيام، وعندما ابتسم العالم ابتسامته الصفراء، أوتيتم تحت سقوفكم القرميدية السوداء، حتى القرميد

(1) الطوق (رواية)، غريب عسقلاني، ص 14.

(2) السابق، ص 38.

(3) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 9.

أصبح في المخيم أسود، تطاردون فراخ الداقور الأسود، التي تعافها كرام الأسماك، تتسولون طوابير على بوابات مراكز التغذية...⁽¹⁾.

إن تلك الكلمات التي قيلت، تُلخص المعاناة الفلسطينية في المخيم، المعاناة في أبعادها المختلفة: - السياسية، حيث ترتبط بفقدان الوطن.

- والاجتماعية، حيث ترتبط بالحرمان والتعاسة.
- والنفسية، حيث ترتبط بالاغتراب والاقتلاع من الجذور، وكأن الكاتب يتماهي مع قول الشاعر⁽²⁾:

وَلَمَّا كَلَّ سَاعِدُنَا نَزَحْنَا وَرُحْنَا فِي الْبِلَادِ مَشْرِدِينَا
تَشَتَّتْ شَمْلُنَا شَرْقًا وَغَرْبًا وَأَصْبَحْنَا نُسَمَى لِأَجْنِينَا

لقد تجلّى المخيم من خلال حياة شخوصه ومعاناتهم، وقد أشير إلى مظاهر البؤس التي يتساوى فيها أبناء المخيم، التي تبدو هزلية أحياناً: "... البرد والصبيان يتدثرون مما جادت به الوكالة من صرر الإغاثة، من سترات، وبلوزات صوفية، وبنطلونات، وفساتين... الصبيان يلبسون سترات رجالية تغطي قصبات السيفان، ويثنون الأكمام على البطانات الحريرية اللامعة..."⁽³⁾، في هذه الصورة العجيبة تعبير عن الفقر الذي يعيشه أهل المخيم، فوظيفة الملابس هي ستر الجسم ووقايته، ولم يعد لها هدف تزييني مما هو معتاد.

لقد كان الواقع الفلسطيني في المخيمات صعباً ومهيناً، يعيش حياة مليئة بالرعب وعدم الاستقرار، ففي رواية (ليالي الأشهر القمرية) التي تطرح في بعض ثناياها قضية الأنظمة القمعية، ودورها في التآمر على الإنسان الفلسطيني المسحوق، مع أعداء ابن المخيم، المتمثلين في الضياع والعدو الصهيوني، فمن تشرّد إلى تشرّد، ومن رحيل إلى رحيل، حتى أضحى الفلسطيني كالريشة في مهب الريح، فالخروج من الوطن إلى المنفى، والاصطدام بالمعنى المجسد لفقد الأمان مادياً ومعنوياً يزلزل عالم الفلسطيني ككل، والارتطام بالمنفى مساوٍ لأن يجد المرء نفسه متروكاً بلا سند من أي قوة، مراقب في كل تحركاته، فهو ضيف غير مرغوب فيه

(1) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص15، 16.

(2) سعيد علي زين الدين (المحامي الناثر والمربي الشعري)، سليم عرفات المبيض، ص195.

(3) ليالي الأشهر القمرية (رواية)، غريب عسقلاني، منشورات مركز أوجاريت الثقافي، ط1 رام الله، فلسطين،

2002، ص47. وهي رواية تناقش مفهوم العودة في اتفاقية أوسلو، وهي عودة مجزوءة على أجزاء من

فلسطين.

في سوريا ولبنان والأردن ومصر"... صارت حالة السكون والانتظار استثماراً ثورياً، ضيوف نحن، مراقبون عند الخروج وعند العودة... أي خروج، وعلى أي صورة يكون، خروج من عمان، وخروج من بيروت، وخروج من طرابلس، وهروب من الكويت، واقتلاع من الشام، أي خروج والمدى أشواق وأسلاك ومعابر ومفارز، وموت يلاحقنا في حمام الشط، يتعقبنا اغتيالات في المضاجع، وعلى مرأى الزوجات والأولاد..."⁽¹⁾، فلم تُعد بلاد العرب أوطانه، وضافت عليه الأرض بما رحبت، بعد أن خذله الإخوة والأقارب ووجد نفسه في تلك المنافي، لا مال ولا بيت يأويهم، ومن هنا بدأت رحلة الشقاء والمعاناة، لأن الانظمة العربية لا ترغب في بقاءه خوفاً على وعي شعوبهم، وكأن الكاتب يتماهى مع قول الشاعر⁽²⁾:

يُطارِدنا العدو بكل أرض وينكرنا القريب ويزدرينا
وأمسى ليلنا شؤماً علينا وأصبح يومنا نحساً مُبيناً

وتتشابه الصور في مخيمات المنفى مع الصور في مخيمات الضفة وقطاع غزة، حيث أصبح الفلسطيني رقماً، أرقام الأمم المتحدة، وبطاقات الإعاشة هي السمات المشتركة لهذا المكان التعس فـ"...المخيم في الجوار منفي، والمخيم في الوطن بعض الوطن، مواطئ قدم، ومسقط رأس وهوية، رقم والأرقام متنوعة، أرقام الأمم المتحدة، وبطاقات الإعاشة، أرقام المحتلين الذين أصبحوا بقدره قادر الطرف الآخر..."⁽³⁾، لقد خيم هنا المناخ القاتم، بين الأمل والواقع، المليء بالأسى والتحسر على ما آل إليه الحال الفلسطيني.

إن اكتشاف الهوية الفلسطينية مرادف لشيئين أساسيين: الارتباط بالأرض، وحمل السلاح، وكما أن قبول الفلسطيني للمنفي، واستكانته لوطأة هزيمته في الماضي، هما الجحيم الذي يظل يصطلي بناره أبداً؛ لذا فإن الارتباط بالأرض وحمل السلاح هما خلاصه...⁽⁴⁾. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الوضع الفلسطيني في قطاع غزة كان متميزاً إلى حد ما عن غيره من التجمعات الفلسطينية الأخرى، وهذه حقيقة يجب أن نذكرها، فرغم تبعية قطاع غزة من الناحية الإدارية لمصر، فلقد ظل القطاع فلسطيني التماسك والملاحم، وظل شبابه محتفظين بشيء من الاستقلالية الوطنية، الأمر الذي ساهم في تكوين الوعي السياسي المبكر لدى هؤلاء الشباب،

(1) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 59.

(2) سعيد علي زين الدين (المحامي الناثر والمربي الشاعر)، سليم عرفات المبيض، ص 195.

(3) ليالي الأشهر القمرية (رواية)، غريب عسقلاني، ص 54.

(4) الطريق إلى الخيمة الأخرى (دراسة في أعمال غسان كنفاني)، د. رضوى عاشور، دار الآداب، بيروت،

كانوا أول من استجاب للفعل الثوري النضالي، بل إن القطاع كان قد شهد في أواخر الخمسينيات تطوراً ملحوظاً في العمليات الفدائية داخل (إسرائيل)، والتي كانت تنطلق بقيادة بعض ضباط الجيش المصري (مصطفى حافظ) تطارد اليهود مع محمد فارس، يصارعهم ويطويهم، يطرحهم أرضاً، ويقطع أطرافهم، كنت أعتقد أنه عنتره بن شداد أو ابن شمشون الجبار... .. ولا يحدثني عن مغامراته، وعن الفدائيين الذين يعبرون الحدود من وادي بريدعة، ومن بيارة الباشا، يعبرون إلى البلاد، ينفذون العمليات، ويفعلون العجائب، ويعودون في نفس الليلة...⁽¹⁾. وفي ظل الواقع المرير في المخيمات كان من الطبيعي أن تكون المخيمات أول من يتفاعل مع الثورة، ثورة الحجارة، يتفاعل مع الأمل.. ليتحول المخيم من مكان للتعاسة والفقر والذل إلى مكان للثورة والكرامة، لقد بدأت إعادة الذات الفلسطينية في المخيم، ويتعلم اللاجئون ألا يعتمدوا على أحد، بل عليهم الاعتماد على أنفسهم، لقد أعلن الفلسطيني تحديّ للاحتلال، ورفضه له برمته، مهما كانت وسائل الدفاع عن النفس محدودة، ويصبح الخروج إلى الشارع أمراً حتمياً، لا يجوز التردد فيه، أو التراجع عنه، لقد تحدى الناس قوات الاحتلال، وتقدّمهم الصبية يرشقونهم بالحجارة، فتطلق نحوهم الرصاص، والغاز المسيل للدموع، ويقع شهيداً، ويثبت الفلسطيني - رغم بدائية العتاد - أنه على مستوى الصمود والتحدي "واحتدمت حالات المخيم، تنفّسنا المسيل للدموع، واحتمينا بالأرزة التي يرهبها الجنود... .. واندلقت دموعنا لسعات الغاز، أحرقت أعشيتنا... استنفزت مسامات جلودنا، وازداد الهياج، تلاحم الناس بالناس، وانسحب الجنود، كالعادة حسمت جموع الناس الجولة.. وتدخلت بنادق الجنود رصاصاً.. انهالت الحجارة على الميكروفون الذي راح ينق، يشق الجموع"⁽²⁾، فالمواجهة الحقيقية هنا تظهر مكنونات الطاقة في الإنسان الفلسطيني لدرجة الموت.

لقد تناثرت مشاهد الانتفاضة في عدة مقاطع في تلك المجموعة القصصية، ومنها "هاجت الدنيا.. أمطرت الحجارة.. انشقت الأرض عن دخان الإطارات.. انتصبت في الشوارع حواجز تلي حواجز.. في شارع المشتل يغلف الدنيا سواد غاضب، لم يطمس صوت الآذان.. هامة (أبو بكر الصديق) تطاول السحاب، وترقب بود جحافل الصغار والكبار من تلاميذ ابن سينا المجاورة.. أصبحت المواجهة لعبة يومية، والناس حشود وشهود"⁽³⁾، لقد خرجت الجموع

(1) جفاف الحلق (رواية)، غريب عسقلاني، ص 86، 87.

(2) الصبي والشمس الصغيرة (مجموعة قصصية) قصة (وردة بيضاء من أجل ديفيد)، غريب عسقلاني، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ط1، القدس، 1992، ص2. وقصة (وردة بيضاء من أجل ديفيد) مناقشة لجدوى الحوار

السلمي مع نماذج إيجابية من اليهود.

(3) السابق، ص44.

وكانها تدافع عن أبي بكر الصديق في فلسطين، تدافع عن رحم الأمة الإسلامية. كما تحول المخيم بكل قاطنيه رجالهم وشبابهم وأطفالهم ونسائهم، إلى عنوان للكرامة والشجاعة والبطولة "...أدور في المخيم.. اندفع مع الناس.. جيوبى محشورة بالحجارة، أسابق الأطفال والصبيان والنساء كلما لاحت دورية للجيش، نصرخ ملء الصدور: عليهم... عليهم.. نندفع، تسبقنا جارتنا.. وتسابقنا قنابلهم وزخات الرصاص.. تطاردنا السيارات، أنزوي، ألصق بجدران الأزقة.."⁽¹⁾، حيث تتصهر الخلافات، فلا مجال للتصنيف العقائدي والفصائلي.

وفي مشهد آخر، حيث البطولات والتضحيات، ونزيف الدم "وفي الطريق مرّت سيارات الجنود، وانطلقت الحجارة، وانطلق الرصاص..، فانطلقت تعدو.. حوّمت رصاصة في الهواء، دارت دورتها، وضاعت عين الصغير.. وانخلع قلب الأم.. وبكت الشمس.. وتلونت ظفائرها بلون دم الطفل.. وتبخّرت رائحة ماء الورد.. ورقص الشيطان مزهواً في حافلة الجنود"⁽²⁾. لم يكتف الكاتب بإبراز قدرة الجماهير على قهر الصعاب، وتجاوز العقبات ليسلكوا سبيل النضال، بل إنه استطاع أيضاً أن يظهر ببراعة كيف أن أطفال الحجارة صنعوا المستحيل، في صورة يعجز اللسان عن وصفها، فلقد أصبح "الأجنة أطفالاً وصبياناً يركضون، وعلى الأسفلت يزرعون إطارات السيارات، يشتعل المطاط سواداً كثيفاً، تعلو السنة الذهب وترتدي الأمكنة السوداء، وحناجر الأطفال والصبيان تفرقع.. يصعد الغناء من الصدور، والمخيم ينثر الصبيان حول بوابات المدارس، وإلى المدينة يصل المدد.."⁽³⁾، لقد اصبح المخيم هو الذي يحرك المدينة؛ لأن ابن المخيم هو صاحب العودة.

إن الرحيل إلى الوطن هو الوعد الذي يتدفق من خلال الجراحات، وهو الممر الذي يعيد للروح المقيدة لحظة الهدوء الغائبة، هو الغناء للنبور في انعتاقها من الأصفاد، هو استجماع للرؤى الإنسانية التي تشي بالصورة الحقيقية لشعبنا الضامى لمعاني العدالة والحرية⁽⁴⁾.

إن محاولات الفلسطينيين العودة إلى الوطن سواء أكانت هذه العودة عن طريق التسلل من أجل الاستقرار، أو من أجل مقاومة الاحتلال، أو العودة بعد الحصول على تصريح يسمح لمن يحصل عليه بالاستقرار في الوطن، ولقد حاول النواتي التسلل إلى زهرة أكثر من مرة،

(1) الصبي والشمس الصغيرة (مجموعة قصصية)، غريب عسقلاني، ص7.

(2) حكايات عن براعم الأيام (رسائل الأطفال الرجال إلى براعم الورد) الحكاية الثامنة (العين)، غريب عسقلاني، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ط1، القدس، 1991، ص35. و(العين) حكاية عن معاناة ودور الأطفال في الانتفاضة الأولى.

(3) زمن الانتباه (رواية)، غريب عسقلاني، ص43.

(4) في ضفاف السرد (دراسات)، زكي العيلة، دار الماجد، ط1، رام الله، 2006، ص79.

فترده رصاصات الاحتلال، "أصرت على البقاء حتى يعود، حاول هو أكثر من مرة العودة، فردته رصاصاتهم، وفي يوم تسلل... حتى المجدل... لكنهم قبضوا عليها وهي في الطريق إليه، وسجنوها بحجة عدم حصولها على تصريح..."⁽¹⁾. ورغم مرور السنوات مَعفرةً بالغربة والشقاء، فظل النواتي على بحثه، مسترشداً بنجمته التي لا تضل طريقها "...متى تستريح النورسة على رمال يافا، لا تورقها رياح، ولا تفرعها عواصف، هي الحرب، مَنْ يمنعني من ركوب البحر..."⁽²⁾. ويظل النواتي على حلم العودة، عيناه تبحران إلى منارة عسقلان، ويتساءل الكاتب على لسان الراوي، حيث يستجمع قواه ليسترجع ذكريات الوطن، ويسعد بجنباته في هذه المناجاة العذبة الشجية "وأخيراً يا زهرة، هل نلتقي؟ كيف وأين؟ في يافا، في غزة، مَنْ مِنَّا يصعد وَمَنْ يهبط؟ هل تهبطين من الكرمل فيما أنا صاعد إلى حيفا؟ هل يحط بنا الشوق في العجمي..؟ انتظري في شرفتك، واستقبلي ريح العصارى، حتى يمر النواتي..."⁽³⁾. إن بيت الفلسطينيين الذي لا بديل عنه، هو بيته على أرضه، وأي بيت سواه يظل مأوى في أرض الشتات، وبلغة رشيقة عذبة تُجسد فيض الذكريات، وتسهم في تعميق المأساة، يقول النواتي: "...وتنشر عروس البر ظفيرتها في وهج الدنيا، وتفرداها على أديم الماء، تظلل بذور الأسماك الطالعة من فقوس البيض لتوّها، تقودها غرائزها إلى مواطن الآباء؛ لتمضي مع تيارات الماء الدافئة بعيداً عن صقيع الغربية والمنافي، أكلتُنَا الغربية منذ سقت أنا اللنش جنوباً، واتجهت أنت شمالاً..."⁽⁴⁾. ويظل حلم العودة يراود كل فلسطيني، حتى الأجنة التي أضحت أطفالاً تصرخ وتتمسك بحقها في العودة إلى الوطن، إلى الديار، فهذه زوجة تعاني آلام المخاض بصبر وجلّد، والقابلة بجوارها " - هيا يا امرأة.. سيكون غلاماً.. سيكون .. ألم تسمعي الأخبار منذ أيام؟

وأتى غلام يصرخ في وجه العالم...

- أتى عائد..."⁽⁵⁾.

إن الوطن محفور في وجدان الفلسطيني، واعتبار العودة إليه هاجساً دائماً في وعيه، والشوق إليه لا ينتهي "... وها أنا يا أمي على أرض الوطن، أنتظر العبور من الوطن إلى الوطن... .

(1) نجمة النواتي (رواية)، غريب عسقلاني، ص 62.

(2) السابق، ص 94.

(3) السابق، ص 93.

(4) السابق.

(5) الخروج عن الصمت (قصص قصيرة) قصة (حوليات الدم)، غريب عسقلاني، البيادر، القدس، 1979، ص 23. وقصة (حوليات الدم) إعادة إنتاج أحداث أيلول سنة 1970، وخروج المقاومة من الأردن.

- ها أنت تقودنا إلى الوطن.
- قلبي يُحدّثني أنني سأظل أعدو حتى أقذف نفسي في حضنها.
- وهل تعرف الطريق إليها، وقد تغيرت الدروب والمسالك؟
- شوقي يدلني عليها⁽¹⁾.

وهكذا يظهر بوضوح أن علاقة الفلسطيني بالمخيم تنطلق من دور هذا المكان في تغريب الفلسطيني من وطنه، ويظهر كمكان للبؤس والعذاب والضياع والمذلة؛ بسبب الافتقار إلى مقومات الحياة الإنسانية، كل ذلك حول المخيم إلى مكان للثورة والنضال والكرامة، يتجلى ذلك من خلال العمليات الفدائية، علاوة على قيام الانتفاضة المباركة، والتي أعادت للفلسطيني الثقة واكتمال الذات، ولن يكتمل الفلسطيني في ذاته وشخصيته وانتمائه، إلا بعودته إلى الأرض، إلى الوطن.

(1) نجمة النواتي (رواية)، غريب عسقلاني، ص80.

الفصل الثاني

الأرض ودلالاتها الرمزية

- العرض
- العطاء
- الذات
- الأم والخليلة
- دلالات أخرى

الأرض ودلالاتها الرمزية

إن الذين تناولوا دلالة الرمز ومفهومه وأنواعه كثر⁽¹⁾، وما تناولي للرمز من هذا الجانب انتقاصاً لجهودهم، بل تيسيراً على القارئ، وتذكراً له بين يدي الدرس التطبيقي.

إن امتلاك النص الأدبي لمستواه التعبيري رهن بمقومات النص الفنية التي تسهم فيه اللغة الأدبية، من حيث كونها مفردات ودلالات وتراكيب وثيمات وعلائق وأنساقاً ورموزاً – ذاتية وموضوعية – في تشكيل بنية العمل الروائي وتحديد صورته النهائية. ويُعد الرمز مستوى من التعبير، أو نمطاً من أنماطه الفنية التي تعتمد إمكانات النص التعبيرية غير المحدودة وقدراته على الإيحاء المتنوع المتجدد، وهو إذا تحقق يستبطن الحدث، ويبقيه في حالة توهج، هي جزء من سر الكتابة وسحرها⁽²⁾.

كما يسهم الرمز في تصوير الصراع والحلم والفرح والفجعة وما يواجهه الإنسان من مشكلات، يمكن ملاحظة أن توظيف الرمز يعمل على الدفع بطاقة القص نحو الانثيال وفق نظام (حبكة) يصعب مقارنتها مع نظام الحبكة التقليدية، خاصة حتى تبلغ الرواية أداءً فنياً متميزاً من خلال تقنيات متقدمة ومناسبة لا تغلق دائرة الطاقة الروائية كما يحدث عادة في الحبكة التقليدية⁽³⁾.

ويُعد الرمز من الوسائل الفنية المهمة، فعن طريقه ينقل الأديب أو الشاعر أحاسيسه ومشاعره وأفكاره إلى المتلقي بالإيحاء والتلميح بدلاً من اللجوء إلى المباشرة والتصريح. ويعتمد الرمز الصورة المعنوية التي يبتدعها المبدع، وقد أشار الدكتور نبيل أبو علي في كتابه (اتجاهات القصة القصيرة) إلى الرمز بتعريفه أنه: "وسيلة من وسائل التعبير غير المباشر عن الآراء والأحاسيس المستترة، التي تعجز اللغة ودلالاتها الوصفية عن التعبير عنها"⁽⁴⁾.

(1) انظر: الرمزية، تشارلز تشادويك، ترجمة: نسيم إبراهيم يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط) القاهرة، 1992، ص 17، 18. وانظر: دراسات نقدية في الأدب الفلسطيني المحلي، عزت الغزاوي، اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الضفة وقطاع غزة، ط1، القدس، 1993، ص 147 وما بعدها.

(2) الترميز في الفن القصصي العراقي الحديث، د. صالح هويدي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1989، ص 7.

(3) انظر: تحليل الخطاب الروائي (دراسات في الرواية الفلسطينية المعاصرة)، د. حماد أبو شاويش، ود. سعد العزايزة، منشورات الملتقى الفكري للأكاديميين في قطاع غزة، ط1، 2006، ص 145.

(4) اتجاهات القصة القصيرة في فلسطين، د. نبيل خالد أبو علي، مكتبة دار الأرقم، ط1 غزة، 2007، ص 314.

ولقد فرّق صالح أبو أصعب في معرض دراسته للرمز في الرواية العربية المعنوية بالقضية الفلسطينية، بين شكلين له: الرواية الرمزية الخالصة، أي: التي توصلت بأسلوب رمزي خالص للتعبير عن مضمونها⁽¹⁾، ورمزية الدلالة، أي: تلك المعالجات الجزئية التي استخدمت الرمز من خلال ما يمتلكه من قوة إحاء؛ ليعمل على توضيح فكرة أو موقف للمساهمة في تفسير الرمز العام للرواية⁽²⁾. وعلّل ندرة النصوص الروائية التي تنتمي إلى المستوى الأول، بقوله: "إن الروائيين... كانوا يضعون في حسابهم أن رواية القضية الفلسطينية... رواية مناضلة، بمعنى أنها هادفة وملتزمة، ولذا فإنها يجب أن تؤدي دورها الجماهيري الذي قد لا يتم حينما تصبح الرواية ذات رموز غامضة أو مستغلفة الفهم، وحيث تصبح برمزياتها غير قادرة على توصيل الفكرة إلى أذهان الجماهير"⁽³⁾.

والشكلاّن معاً لا ينتميان إلى مفهوم "الرمزية الموضوعية" كما يرى أحمد أبو مطر الذي علّل ذلك باقتراب الرواية الرمزية من الواقع ومعالجته، بقصد بنائه وتغييره نحو الأفضل⁽⁴⁾، ليس لأن الرمزية الموضوعية تعني نقيض ما انتهى إليه، أي: تجسيم أفكار مجردة، وتحريكها في أحداث... مصطنعة فحسب⁽⁵⁾، بل لأن الروائيين الفلسطينيين لم يستخدموا الرمز بمعناه الموضوعي أيضاً، فهو لم يكن في نصوصهم الروائية موضوعاً يشير إلى موضوع آخر لكن فيه ما يؤهله لأن يتطلب الانتباه أيضاً إليه لذاته⁽⁶⁾، بقدر ما كان أداة توسلوا من خلالها تعميق تعبيرهم عن المرحلة التاريخية التي يقاربها كل نص من نصوصهم من جهة، وعن علاقة الفلسطيني بأرضه من جهة ثانية.

لقد تحوّل الرمز إلى منهج أدبي ونقدي شكّل هدفاً أدبياً فنياً، يقوم الأديب بمحورة قضية من القضايا أو شخصية من الشخصيات، أو موضوع من الموضوعات، فهناك رمز القضية أو رمز الموضوع أو رمز الشخصيات، ويجب ألا تغيب عنا الترميزات الأخرى كرمزية المكان في الرواية، وهي رمزية مهمة اهتم بها الروائيون وخاصة الفلسطيني، حيث ظهر المكان (الرمز) في الروايات التي تتحدث عن القضية الفلسطينية، وهذا يستدعي بالضرورة ترميز

(1) فلسطين في الرواية العربية، صالح أبو أصعب، مركز الأبحاث الفلسطينية، (د.ط) بيروت، 1975، ص129.

(2) السابق، ص165.

(3) السابق، ص128.

(4) انظر: الرواية في الأدب الفلسطيني، أحمد أبو مطر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص297.

(5) الأدب ومذاهبه، أحمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة، 1974، ص135.

(6) نظرية الأدب، رينيه ويلك، أوستن وارين، ترجمة: محيي الدين صبح، مراجعة: د. حسام الخطيب، المؤسسة

العربية للدراسات والنشر، (د.ط) بيروت، 1987، ص196.

الوطن، ونرى ذلك حاضراً حضوراً كبيراً في رواية الفلسطيني الذي افتقد هذا الرمز على المستوى الواقعي، فجعله رمزاً أدبياً ذا مدلولات شعورية وفكرية خاصة، ونجد ذلك عند أديبنا غريب عسقلاني باسمه المستعار (الرمز)، فهو من مجدل عسقلان، وغريب عن بلاده، عن أرضه، مما يدل على التشبث بحق العودة.

لقد نسج الروائي الفلسطيني علاقة متميزة مع الأرض، علاقة تفوق نظرة الاستثمار والانتفاع، هذا الإنسان المقتلع من الأرض، لم ينظر إليها ولم تكن علاقته معها مجرد علاقة مع مساحة مفيدة، أو فضاء مزروع: حقل وكرم وبستان، بل كانت العلاقة مع الأرض في جوهرها هي علاقة مع: الذات، الهوية، الوطن...⁽¹⁾.

أبرزت الرواية الفلسطينية علاقة الإنسان الفلسطيني بأرضه في بعدها الرمزي، ومن هؤلاء الروائيين الذين ظهر البعد الرمزي في أعمالهم: غريب عسقلاني، حيث برزت الأرض بدلالاتها المتعددة، ومنها: العرض - العطاء - الذات - الأم والخليفة، ودلالات أخرى

1- العرض:

لقد ارتبطت الأرض بشرف الإنسان؛ لذا فهو مطالب بالوقوف في وجه الطامعين في هذه الأرض سواء من الأعداء الغرباء، أو من السماسرة، "... قدرك ساقك إلى طريق (أبو السعود) وسيطاً في قضية أرض باعها مَنْ لا يملكها بعقد بيع مُزَيَّف لأبي السعود... بقروش طَيرتها رؤوس الأراجيل في قبو ما، أو على ضوء قمر مناور، تسلل إلى مخدع امرأة تحت سقف مخملي يمتص ألوان الطيف، يُقَلَّب أوار اللهب الملتهب حتى تخمد، وتذهب روائح اللحم، تطير الأرض من صاحبها النائم على أذنيه، يفرعه هدير الجرافات يقرر بطن أرضه... ضعفه رماه عليك يشد حزامك يسوقك إلى أبي السعود... ساومتَ وفاوضتَ، وفوق الحزام في عب الجلابية خبَّات ما خبَّات، فارتضيت "يموت الذئب ولا تغنى الغنم"، ولأن اللعبة تصب في بطن (أبو السعود) فلا بأس لو صبَّت في بطنك..."⁽²⁾، لقد برع الكاتب في تعرية الذين باعوا الأرض (العرض) بأبخس الأثمان بتخاذلهم وتواطؤهم؛ إذ صَوَّرَ سماسرة الوطن بأفبح صورة؛ حيث وصف انتهازييتهم وفقدانهم للكرامة والمروءة والشرف، هؤلاء الذين انسلخوا عن أرضهم ووطنهم وشعبهم، والبحث عن شهواتهم بقيادتهم المزعومة التي أضاعت البلاد والعباد.

(1) انظر: الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية، علي عودة، ص157.

(2) زمن دحموس الأغير (رواية)، غريب عسقلاني، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينية، ط1 فلسطين، 2001، ص79. هي رواية تجمع بين الواقعي والفتنزي، وتناقش مفهوم الشخصيات المتسلطة الانتهازية التي تستغل الأزمات والأحداث الملتبسة، وتصدر نفسها رموزاً في كل مرحلة.

إن التفريط بالأرض يعادل التفريط بالعرض، وهو ما يرفضه الفلسطيني وفقاً لقناعاته الموروثة، ووفقاً لفهم الإنسان العميق لمفهوم الشرف؛ ولذا يخاطب خضر أبو العلا الجدّ قائلاً: "ضاعت الأرض يا سليمان، وما بقي غير العرض نحمله حتى نعود"⁽¹⁾.

لقد قصد عسقلاني تعزيز علاقة الإنسان الفلسطيني بأرضه بما تبقى له من أرض لم يصادرها الأعداء، ودور الرأسمالية الوطنية في حفظ الأرض وحمايتها من بيعها لليهود لأنها كانت تشتري تلك الأراضي التي يضعف أهلها ويفكر في بيعها، فـ (يوسف تميم) شاه بندر تجار المجدل، والتاجر الأصيل، يرفض فكرة بيع الأرض، والتخلي عنها للسامسة، والذين هم بدورهم يقومون ببيعها لليهود: "...وانتشرت قصص عن بيع أرض لليهود، وعن سامسة وتجار طقّ فيهم عرق الحياء، وقف لهم يوسف تميم شاه بندر تجار المجدل، الذي ظهرت عليه النعمة بعد الحرب... وترجع تاجراً أصيلاً، امتدت تجارته من حيفا إلى غزة، وأعلن مع كبار تجار البلد... أن لا يبيع لغير مجدلاوي أو عربي مقيم في المجدل، حفاظاً على أراضي البلد. وبادر المقتدرون على حفر الآبار وزراعة الحمضيات، فانتشرت البيارات واستوعبت العمال الفائضين من البلد والقرى المجاورة، ما حفز الكثيرين على الإقامة الدائمة في البلد التي سارت نحو التحول إلى مدينة صناعية زراعية كبيرة..."⁽²⁾، لقد تم التركيز هنا على الأثر السلبي لمغادرة وبيع الأرض، وانعكاس ذلك على النضال الفلسطيني، والوعي للأساليب التي يستخدمها الاحتلال لتفريغ الأرض من السكان ودفعهم إلى الهجرة، وكأني بالكاتب يسعى إلى تعزيز فكرة البقاء على أرض الوطن، ففلسطين في نبض وروح وأدب عسقلاني الذي يكتب في مدار الوطن، يقول عسقلاني: "لا أعتقد أنني كتبت يوماً خارج مدار الوطن، ولم أكتب عن غير الفلسطيني الذي سكنه وطن مصادر، ويعيش مكابدات تأكيد هويته، حتى يستعيد مكانه بين البشر، ويستعيد وطنه"⁽³⁾.

2- العطاء:

تتبع أهمية الأرض من كونها مصدراً أساسياً من مصادر رزق الإنسان، وتتعزز العلاقة بين الإنسان وأرضه حين تتعرض للمصادرة والضياع، فالراوي في رواية (عودة منصور

(1) أولاد مزيونة (رواية)، غريب عسقلاني، شمس للنشر والتوزيع، ط1 القاهرة، 2009، ص164. وهي رصد للتغريب الفلسطينية منذ العهد العثماني وحتى أحداث الاقتتال الداخلي في غزة.

(2) السابق، ص42، 43.

(3) ربما قاسم تحاور القاص الروائي الفلسطيني غريب عسقلاني.

اللداوي) "خلط الرمل بالطين، وقسم الأرض أحواضاً وأرباعاً ومساكب، ربع الليمون مع كساد أسعار البرتقال، وربع الجوافا، وربع المانجا، وحظيرة دواجن، ودفينة خضار... إلى الشرق من المزرعة تمتد المساحات الخضراء"⁽¹⁾، هنا تتحول الأرض إلى دلالتها الرمزية فتصبح رمزاً للكرم والعطاء من خلال الحث على العمل في هذه الأرض والارتباط بها، واستصلاح وإعمار للأراضي البور بحيث تصبح مكاناً صالحاً للحياة ويحقق دخلاً للمعيشة الحرة، ويعتبر هذا أحد أشكال المقاومة للاحتلال، وهو أنجح الأساليب على المدى الطويل لتحقيق الحياة الكريمة، والذي ألاحظه في هذه الرواية، اختيار الراوي للبطل من داخل الأرض المحتلة عام (1948) وهو منصور اللداوي، ليدل على وحدة الأرض وإذا كان الكاتب (الراوي) يريد التحرير، فالثاني (البطل) يحافظ على هويته؛ لأن انتماءه للزيتون هو انتماءه للهوية.

إن علاقة الفلسطيني بالأماكن المختلفة قابلة للتبدل والتغير، سوى مكان واحد هو الأرض، إنه المكان الوحيد الذي كانت علاقة الإنسان الفلسطيني به إيجابية بل وحميمة دائماً، وهي علاقة غير قابلة للانفصال أو الفكاك، إنها الأرض العطاء، والأرض الهوية والانتماء، وهي التي تحقق التثام الذات، يقول السارد على لسان أحد أبطال روايته: "عند شجرة أخذتني الرجفة... نحروا جذعها مالت.. ربما نامت على ذراع من فروعها تستقبل الجفاف، تصعد على وجع الذبح.. تبتسم... أخبرتني وهي في النزح الأخير من فصل النهايات. إني أودعت بذوري في التراب، بانتظار أول الغيث في فصل الشتاء، وبذوري تحمل روعي، تملأ الأرض ثراء وبهاء.. دمعتي احترقت مثل يباس الشجرة، قلبي يصعد فوق الآهة، يهتف: "مع أول غيث أزرع في حضنك قرنفة تنشر عطر روحك في المكان"⁽²⁾.

لقد اتكأ الكاتب فيما سبق على عنصر التشخيص من خلال استنطاق الشجرة بما تحمله من دلالات، فهي رمز يدل على رسوخ جذور الشعب الفلسطيني في أرضه، إضافة إلى ما

(1) عودة منصور اللداوي (رواية)، غريب عسقلاني، منشورات دار الزهرة، ط1، فلسطين، 2002، ص140. وهي رواية تعالج مسكيات في مسيرة الثورة الفلسطينية، وتلقي الأضواء على تفاعل أنماط متعددة من الشخصيات مع هذه السلبيات، كما تقف عند إعطاء الرقم الوطني مشروطاً بعدم مشاركة المناضل الفلسطيني في قتل أي شخص يهودي.

(2) ثلاثية شمس (متوالية روائية)، رواية ضفاف البوح، غريب عسقلاني، الدار للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2008، ص233، 234. وهي عبارة عن متوالية روائية من ثلاث روايات قصيرة هي: أزمنة بيضاء، ضفاف البوح، بيت في الأثير، بطلتها (شمس) الفلسطينية المغتربة داخل الوطن الذي عايش النكبة وحتى الآن. ورواية (ضفاف البوح) تعتمد على اللغة بشكل أساسي، وتتسامى بالعلاقة الشخصية إلى حد القداسة؛ لأنها تجمع بين الحبيبة والوطن، فيتداخل الوطن في الحبيبة والعكس، وتكون مناخات الغربة هي المناخ السائد قديماً بين وليفين لا يلتقيان بسبب الظرف السياسي والاجتماعي.

تكتنزه من دلالات توحى بالخصوبة والخير والنماء، وهي الحقيقة الوحيدة الكفيلة بمناهضة مزاعم الصهيوني الذي عمل على اقتلاعها، هذه الشجرة التي أودعت بذورها، التي تحمل الروح الثائرة، أودعتها في مكانها الصحيح، والتي تطمح للأمل من خلال أولادها، الأبناء الذين سيأتون بالنصر مع أول الغيث في فصل الشتاء، الغيث الذي يرمز لرائحة التراب والعطاء والإخصاب، والعودة إلى الأماكن القديمة، وهو رمز التجدد والبعث، وكأن الكاتب يسعى للتماهي مع قول محمود درويش⁽¹⁾:

جنوري قبل ميلاد الزمان رست

وقبل تقادم الحقب

3- الذات:

ونجد العزيمة والرغبة في العودة إلى الجذور وتحقيق الذات من خلال اشتداد البعد المكاني الذي قد يثير مخاوف استمرار الانقطاع عن الوطن؛ فالغريب المُشرد اللاجئ بعيد عن مسقط رأسه إذا احتل الصهيوني وطنه، وشرذ أبناء شعبه، واستحالت عودة الكثير منهم للوطن، يقول السارد في رواية أولاد مزيونة: "... وقيل أن أم سليم هجرت الدار في غيابه إلى الكرم، وأقامت في الخُص صيفاً وشتاءً، تزرع وتحصد وتعزق الشجر... وتردد المواويل على ظريف الطول الذي أخذته الغربية، حتى تغرّب عن عينيها ماء الدمع... تواسيها الجارات خوفاً من الوحدة:

- ارجعي لدارك.. الدار المهجورة تصير خرابة تسكنها الشياطين.
- الدار لصاحبها.. يرجع ويعمرها بأولاده.. الدار من غير صغار مش دار"⁽²⁾.

لقد مزج عسقلاني بين (أم سليم) والأرض؛ فـ(أم سليم) رمز يستجمع ثلاث دلالات هي: الأرض والوطن والشعب، يتجلى ذلك من خلال توحيدها بالأرض (الكرم)؛ فتكوين أم سليم الانفعالي والوجداني يبدو لصيقاً بالأرض فهي "تزرع وتحصد وتعزق الشجر..."، فالارتباط بالأرض والعمل بها هو تركيز آخر، بل تأكيد على رفض الهجرة، وهذا النواح المتمثل في البكاء على ابنها هو في حقيقته نوح على الذات، لقد ذهب الابن من أجل الأرض، فأصبحت الأرض تحمل روح الابن، فتمسكت (أم سليم) بالأرض كي لا تضيع بضياح الابن.

⁽¹⁾ مجنون التراب (دراسة في شعر وفكر محمود درويش)، شاعر النابلسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص156.

⁽²⁾ رواية (أولاد مزيونة)، غريب عسقلاني، ص 58، 59.

'كيف عبّرت يا أمي الأيام والليالي؟ انتظرت واحتملت الانتظار حتى عاد الفتى، وقد ترك خلفه عمره وزهرة شبابه، يستظل بحكاية قديمة.. ينتظر ظلاً وارفاً وصدراً دافئاً، مَنْ يُدْفئ مَنْ..؟' عمرك الذي تسرّب انتظارك أم عمري الذي توزعته المنافي؟ طردتني دروب، واستقبلتني دروب وأنت الباقية في المخيم على بعض الوطن، والمخيم تغيرت دروبه وشوارعه وأزقته وأسواقه، ودارك لم تتغير... نهايات الدروب ردتنا على أعقابنا، تعلمنا فرحة الحفاظ على الذات فأدمننا اللعبة...⁽¹⁾، إن هذا الجزء من الحوار الذي دار بين الأم وابنها العائد من المنفى يحمل دلالات رمزية تتمثل في (دارك لم تتغير) فهي دار مؤقتة لأن الأم ترفض فكرة أن تكون لاجئة وبالتالي المخيم أيضاً مرفوض، حيث القوة في إثبات الذات، ذات الشعب الفلسطيني، فالدار هنا تتجاوز الحيز الجغرافي والمعنوي إلى الحيز التاريخي والهوية والشخصية، لقد انتقل السارد من التلميح إلى التصريح "تعلمنا فرحة الحفاظ على الذات"، وكان حرياً به أن يترك للقارئ حرية الاستنتاج كي "يحفظه من داء التقريرية، والتعبيرات المباشرة، التي لا تدع للمتلقي فرصة المغامرة والتجربة واستكشاف المعاني بعد رحلة صيد ممتعة"⁽²⁾.

إن الحالة التاريخية التي عاشها الفلسطيني عبر عصور التاريخ المتعاقبة، خلقت في نفس هذا الإنسان إحساسه بذاته، ومحاولة تأكيده هذه الذات للاحتفاظ بالهوية الفلسطينية، يقول السارد على لسان أبطاله، طه والعجرية: " - ارجع لأهلك يا طه... لم تعد لي.

- أنت أهلي..

- ارجع إلى طينك، فأنا من سلالة لا طين لها،

وكل طين عندنا محطة سفر"⁽³⁾.

لقد أصبح (الطين) في هذا الموقف الأقرب من نفس الفلسطيني، بل هو نفسه، فهو يحيي الأمل في العودة إلى دياره وأرضه، والعجرية هي رمز للنزوات الطارئة.

4- الأم والخيلة:

هناك سمات ذات خصوصية فلسطينية نجح غريب عسقلاني في إضافتها على عمله الروائي، وبخاصة ما تجسّد في شخصية المرأة في رواياته بدلالاتها المتعددة، ولا شك أن المرأة كانت وستظل أجمل رمز لكل المعاني الجميلة، فهي الحبيبة والأم والأخت والوطن والثورة، ولقد

(1) ليالي الأشهر القمرية (رواية)، غريب عسقلاني، ص54.

(2) مجنون التراب، شاكر النابلسي، ص500.

(3) رواية (أولاد مزبونة)، غريب عسقلاني، ص23.

جعل عسقلاني المرأة عنصراً أساسياً ومؤثراً في الأحداث والبناء الفني في رواياته وقصصه إلى الحد الذي وصلت فيه إلى كونها رمزاً للوطن؛ لما شكّله المرأة الفلسطينية من مكانة عالية وأثر فاعل في مسيرة النضال الفلسطيني، إضافة إلى جعلها أيضاً عنصراً من عناصر الارتباط والتواصل بالوطن، فالمرأة هي الوجه الآخر للأرض، يقول عسقلاني: "المرأة عند غريب هي شريك أساس في الحياة، وفاعل مؤثر فيها، والعلاقة بين غريب والمرأة، علاقة تكامل، وعشق يتجدد في الأم والأخت والصديقة والمناضلة، والعاشقة التي تنتظر فارس يأتيها من خلف الغمام، والمرأة في كتاباتي دائماً إيجابية، متألقة، تقف على لحمها، صابرة ومكابرة، المرأة بهية كما الوطن، بل إن شئت المرأة هي الوطن"⁽¹⁾.

وبما أن المرأة هي الوجه الآخر للأرض، فقد ورد هذا الضرب من التمثيل في التنزيل في قوله تعالى: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَثُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ...»⁽²⁾(3)، وتتخذ (زهرة) في رواية (نجمة النواتي)، هذه الرواية التي "ترصد الواقع السياسي والاجتماعي والفكري في قطاع غزة في مرحلة الستينيات، حين ساد الحلم بقرب تحقق آمال المقهورين المشدودين صوب نجمة يحفظون ملامحها ومواقفها"⁽⁴⁾.

وتتخذ (زهرة) دلالات لها قوة الرمز الموحى، فشخصية زهرة تبدو رمزاً للحبيبة والوطن والأرض والهوية، "... زهرة سكنتنا جميعاً، وأنت صائم على أسرارك يا ريس... .. ولكن زهرة في شرفتها ظلت تنتظر عودة البحار من مشواره القصير الذي امتد عشرين سنة..."⁽⁵⁾، إن زهرة رمز لفلسطين التي تنتظر شعبها وأهلها الذين طردوا منها، وهي رمز للجزء الباقي من شعب فلسطين الذي تجذر بأرضه، ذلك الجزء الصامد المحافظ على هويته، ينتظر شعبه اللاجئ المشرد ليشكلاً معاً وحدة الشعب والأرض. لماذا كانت زهرة هي الحبيبة والوطن؟ لأنها تحملت العذاب بولائها وانتمائها وتشبثها بالمكان والأرض، ولأن الحبيب لا ينقطع أمله في اللقاء بها، والرجوع إليها، ويدفعه الشوق للوطن والحبيبة، إلى المغامرة بالعودة

(1) <http://sh-aladab.com/vb/showthread.ph?t=2321>

(2) البقرة: 223.

(3) (حرث لكم) مواضع الحرث لكم. وهذا مجاز، شبههن بالمحارث تشبيهاً لما يلقي في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالبذور، (فأثوا حرثكم أنى شئتم) تمثيل، أي فأثوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها من أي جهة شئتم. انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، ج1، دار الفكر، ص362.

(4) في ضفاف السرد (دراسات)، زكي العيلة، ص41.

(5) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص60.

"أكثر من مرة - عن طريق البحر - فردته رصاصاتهم"⁽¹⁾. إن اسم (زهرة) يوحى بالنقاء والرائحة والقدرة على البقاء والتمسك بالأرض؛ فالزهرة تحمل البذرة والعكس، والبذرة رمز النماء والعطاء والمستقبل وتجدد الحياة. لقد مثلت زهرة الوطن الذي انشطر جغرافياً، فزهرة التي عقد قرانها على النواتي ما زالت تعيش هناك، في أرض يعزّ عليه الوصول إليها "...لكن الفرحة لم تتم، فقد داهمت الذبحة الصدرية النواتي الكبير، وتأجلّ الفرح عاماً كاملاً حدث فيه ما حدث، وداهمتنا الهجرة، وحملت المراكب الناس شمالاً وجنوباً، وظلت زهرة في غرفتها تنتظر"⁽²⁾. لقد استطاع حدث مغادرة الفلسطينيين لبلادهم إلى عرض البحر الأبيض المتوسط، أن يعيد إلى الكاتب ذكرى التراجيديا الإغريقية وعلاقتها الوثيقة بالبحر، لقد أعادت هذه اللحظات التاريخية للكاتب تفاصيل رحلة (أوليس) في بحر (إيجة)⁽³⁾؛ فالشعب الفلسطيني أساساً شعب بحري، هاجر من جزيرة (كريت) إلى فلسطين⁽⁴⁾؛ لذا هناك عرق إغريقي في هذا الشعب وفي فنونه المختلفة.

ولقد كان النواتي يعيش على أمل اللقاء بزهرة التي كانت سر النواتي الذي لا يفارق تفكيره، وشوقه إليها لا ينقطع، فهي الحبيبة والوطن، ومع هذا الحب القوي، ورغبته في اللقاء، يتعثر اللقاء، ويصبح الأمر أكثر صعوبة؛ لأن الواقع يحول بينه وبين ما يريد.

إن المرأة التي يعشقها، ويتمثل صورتها في وطنه، ويبحث عن ذاته وهويته من خلال بحثه عنها (الحبيبة)، يقول السارد مخاطباً محبوبته في رواية (بيت من الأثير): "لذتُ بك فيك. وسكنتك امرأة وطن. ورأيتك مرسومة في دمي.. رأسك يتوسد شمال البلاد.. قدمك مزروعتان في أرض صحراء النقب، وأنا أجوب تضاريسك، أبحث فيك عن حكاياتي، أقرأ ما انطبع على جلدك من عذابات المشاوير، وأعيش أجداتي المريرة"⁽⁵⁾.

(1) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 62.

(2) السابق.

(3) تقول الأسطورة إنه ابن سيزيف ووالد تليماك في الأساطير اليونانية ... أوليس أهان إله البحر (بوزيدون) فلم يسمح له بالعودة قبل عشر سنوات من التجوال. للمزيد انظر: معجم ديانات وأساطير العالم، د. إمام عبد الفتاح إمام، مج 3، مكتبة مدبولي، القاهرة، (د.ت)، ص 48 وما بعدها.

(4) تاريخ فلسطين الحديث، عبد الوهاب الكيالي، الضفة، فلسطين، (د.ت)، ص 139.

(5) ثلاثية شمس، رواية (بيت في الأثير)، غريب عسقلاني، ص 301. ورواية (بيت في الأثير) عبارة عن فضاء سردي يعتمد على النص المحمول على جملة سردية شعرية تجمع بين الواقع في إطار فنتازي هروباً من إشكاليات الواقع الفلسطيني المعقد، والتي تحول دائماً بين اجتماع شخصين، قاسم العلاقة بينهما الوطن.

يبحث الكاتب المُتقل بالهموم والأحزان، المعذَّب بالغبربة والضياع، المرجوم باللهاث الدائب عن بعض فصول حكاياته، والمحطات الزمنية التي تحمل عبق الذكريات ويعبرٌ عن تجاربه الذاتية، لقد أخذت العلاقة طابعاً شعرياً وجدانياً وبكائياً، إنه يعشقها إلى درجة أنها تصبح جزءاً منه، بل هي (الذات) "ورأيتك مرسومة في دمي"، ويترنم عسقلاني بمحبوبته كأنه يترنم بماء الحياة أو بالروح نفسها. إن هذا الارتباط بالمحبة التي هي رمز للوطن دليل على ارتباط عميق بالجذر "قدمك مزروعتان في صحراء النقب". إنَّ مَنْ يقرأ هذه الفقرة المجترأة من متن النص، يدرك أنها أسطر من قصيدة نثرية ضلت طريق الشعر فارتمت في أحضان النثر، ويلحظ القارئ أن هذه الفقرة لو نسقت تنسيقاً خاصاً، لغدت قصيدة جميلة لا يعوزها الوزن ولا الصورة الشعرية. وهذا ما لاحظته أحد الباحثين بأن قصص عسقلاني في شفافيتها تقترب من لغة الشعر بصورها وتشابيحها الرومانسية الجميلة⁽¹⁾.

وفي السيرة الروائية (يوميات الحرب والموت - غزة تحترق)، يقول الراوي على لسان عجوز عسقلانية في حوارها مع صبيّة: "وفي يوم سألت صبيّة...:

- متى يعود الفتى!؟

رقصت العسقلانية على آخر أصبع تبقى لها بعد القصف، وأخذت الصبيّة إلى صدرها وقالت:

- إرهفي السمع يا شقية..

وسمعت الصبيّة صوت شجار وصراخ وسجال.. قالت:

- ما الذي أسمع يا عجوز...!؟

- بعض ما يجري حوار بين تموز وآذار⁽²⁾

...

- متى يعود الفتى؟

- عندما يثمر الحوار عن قرار

...

(1) القصة القصيرة في الضفة الغربية وقطاع غزة، عادل الأسطة، الضفة، فلسطين، (د.ت)، ص139.

(2) تموز وآذار: موسمان يحملان الخير، تعرضت فيهما حالة المعاناة الفلسطينية لأكثر من حدث مأساوي، وكان طبيعة الصراع تحجب ما يجود به كل من تموز وآذار من خيرات عن الشعب الفلسطيني في صراعه مع المحتل.

وأى حليب يقدمه زرع أرض لبذرة قرنفل تحلم بالحياة.. والأرض ملوثة بالضغينة..
آه يا سيدتي.. وجه مدينتي مثل وجهك مستباح..⁽¹⁾.

تلك الفقرة غنية بالدلالات، حافلة بالإشارات، جديرة بأن يوقف عندها ويُتمعن فيها، فهي تتحدث عن الموت في غزة، وأجواء الخلاف الذي وصل إلى الاقتتال وإهدار الدم، نقف عند العجوز العسقلانية والتي ترمز للوطن والذاكرة وهذا التماهي بين الأرض والمرأة، هذه المرأة التي تعيش فجيعة الاقتتال بين أبناء الوطن الواحد، هذا الاقتتال الذي سيؤدي إلى سقوط المشروع الوطني الذي ناضلوا من أجله بسبب فقدان الرشد وغياب الوعي.

ويخاطب الراوي محبوبته (شمس) بقوله: "هل أنت مثلي؟ وأنا الغريب، لا أرى في الأفق غير مسقط رأسي عسقلان، حيث ولدت أو وجدت، عسقلان الآن تستر عريها بأردية مزيفة، مثلي غريبة مُصنَّعة تفقد شهواتها، وتسكنها شهوات البارود، يرتع في ملافيها قوم من يهود.. صارت تسمى أشكلون، لا ظل يفترش الأرض تحت داليتي هناك.. وداليتي ما زالت ترصد موج البحر، عناقيدها حصرم يختزن الحموضة تأبى النضوج.."⁽²⁾، نجد هنا التماهي بين الأرض والمرأة، هذه المرأة التي تستر عريها بثوب ليس ثوبها "أردية مزيفة" هذه الأردية التي تدل وترمز للمحتل، لقد فقدت هذه الأرض القديمة جداً، والتي هي للفلسطينيين (أشكلون) فقدت شرفها وانتماها.

إن العنصر الدرامي في أدب عسقلاني يتأتى في الغالب من حنين الإنسان إلى تراب الوطن الذي اقتلع منه، فلا معنى للوجود بعيداً عن أرضه التي هي ذاته ووجوده، ففي قوله: "إن عَشْقَكَ لَغَرِيبٌ

- وما وجه الغرابية؟
- تحملها دوماً وتدّعي أنها لك بينما هي في أحضان الآخر.
- لقد أخذها عنوة
- ألا تحس بعدها عنك؟
- وهل ينفصل الإنسان عن ذاته؟

(1) يوميات الحرب والموت غزة تحترق (سيرة روائية)، غريب عسقلاني، سندباد للنشر والإعلام، ط1، القاهرة، 2010، ص 147-149. وهي عبارة عن متابعة سردية تعتمد على الشهادات الروائية والريبورتاج

الصحفي والقصة القصيرة التي تعرف بالومضة لعكس واقع الحياة في غزة.

(2) ثلاثية شمس، رواية (ضفاف البوح)، غريب عسقلاني، ص129.

يحتضنها الآخر محاولاً أن يترك آثاراً لا تمحوها الأيام... وأنت عابر زائل على هذه الدنيا.

مهما اعتصروها.. مهما امتصوها تبقى حبيبتى خارج مدار الشيخوخة... ويبقى حنيني متجدداً... لابد من اللقيا"⁽¹⁾.

تقوم الحبيبة هنا مقام الأرض التي يعشقها، وهي الأمل الذي يتمسك به والمتمثل بحقه في العودة "لابد من اللقيا"، هذا الحق الذي لا يسقط بالتقادم "وتبقى حبيبتى خارج مدار الشيخوخة"، وانطلق عسقلاني في الترميز والدلالة في حالة الحب والفراق المرير الذي مُني به كل من المحب ومحبوته، وهي الحالة التي يسقطها الكاتب على نفسه وعلى حبيبته (أرضه ووطنه)، وبأسلوب حوارى عميق دال يتساءل ويستفسر إذا كان هذا العناء في الفراق والبعد القسري قد قضى على حبه وأنساه إياه وجعله يفقد حنينه إلى هذه الحبيبة، ولابد من العودة دون اعتبار لزمان أو مسافة أو منفى قسري، فـ(الحبيبة) هي رمز لفلسطين التي ضاعت، وأخذها الآخر (الاحتلال) الذي حاول إزالة معالمها وآثارها التي لا تمحوها الأيام. إن حنينه هنا ليس ذلك الحنين الدامع المشبّع بالعويل، لكنه الحنين الذي يحفظ أشياء الوطن بوصلة انطلاق تشع وضوحاً وثباتاً وامتداداً"⁽²⁾.

إن رواية (أزمة بيضاء) تُجسد علاقة المرأة بالأرض أو بالوطن الفلسطيني عامة فـ(شمس) جاءت في هذه الرواية تحمل دلالات إيحائية اكتتفها هذا الاسم (شمس)، الذي يُعد من الرموز ذات الكثافة الدلالية، فهو مصدر الحياة والقوة والضياء والنور والأمل والدفع، وكل ما هو طيب؛ لذلك نرى السارد يناجيه ببوح شعري وجداني صادر عن عاشق موله: "هل تورد فيك الامتلاء فيض شهوة غسلت أديم جلدك بالعرق؟"⁽³⁾.

إن هذه المناجاة تحيل القارئ إلى فضاءات واسعة من التأويل، تجعله يتساءل من تكون (شمس) التي يناجيه السارد؟ إذ ليس ثمة ما يشير إلى ما يحدد هويتها وملامح شخصيتها، هل هي فتاة محددة الملامح والقسمات والهوية؟ أم أنها رمز للحب الذي يطمح الروائي إلى تحقيقه

(1) الخروج عن الصمت (قصص قصيرة)، مقاطع من ..أغنيات السامر، غريب عسقلاني، مطبعة دار البيادر، القدس، 1979، ص90. و (مقاطع من .. أغنيات السامر) محاولة أسطورية لعكس الواقع الفلسطيني، ورسم ملامح الفارس الفلسطيني القادم.

(2) في ضفاف السرد (دراسات)، زكي العيلة، ص98.

(3) أزمة بيضاء (رواية)، غريب عسقلاني، دار الماجد، رام الله، ص47. وهي رواية فيها تجريب على مستوى طريقة السرد، وتصعيد اللغة وتحميلها مهام، بحيث تصبح أحد أبطال الرواية، وتفصح عن المضمير دون ابتذال.

بما فيه من نقاء وطهارة ومحبة؟ أم أنها صورة تحمل كل رموز الوطن بما يتوحد معها السارد غير عابئ بالبعد الجغرافي؟ وأعتقد أن (شمس) هي رمز لغياب الوطن (الأرض)، والتي جعلت السارد يترنم باسمها إذ يقول: "اجدلي يا شمس فتياً من ضفيرة القمر، وازرعيه في بطن قناديلك، وأشعلها بزيت من ينتظرونك، والليل طويل"⁽¹⁾، "صوتك يا شمس له طعم الياسمين"⁽²⁾، لقد جنح الكاتب إلى استخدام التعبيرات الرمزية ذات الإيحاءات الغنية بالمعاني وتصوير الأحاسيس بأسلوب غير مباشر، مستخدماً وسيلة فنية هي "تراسل الحواس"⁽³⁾، بمعنى أن تحل حاسة محل حاسة أخرى، ففي التعبير السابق تراسلت الحواس خواصها وتبادلت مدركاتها؛ فالصوت الذي له طعم الياسمين، حيث أن الصوت من مجال حاسة السمع، تبادل مع طعم الياسمين وهو من مجال حاسة الذوق.

إن غربة الفلسطيني في حقيقتها هي غربة عن أرضه، فقد استغل الكاتب لوحة (رجال الهجانة)، وما يعتلج في صدورهم من أحاسيس الحنين إلى أهلهم وأوطانهم؛ ليكون معادلاً نفسياً لمشاعر الغربة والفقد التي تضطرم في أعماق نفس القاضي الذي اضطر إلى الرحيل عن مسقط رأسه مدينة الخليل إلى مدينة غزة بسبب مواقفه الوطنية، ويعكس موقف القاضي في الوقت ذاته ما يعانیه أبناء الشعب الفلسطيني من هموم الغربة وآلام البعد عن الوطن و"الارتطام بالمنفى مساو لأن يجد المرء نفسه متروكاً بلا سند من أي قوة"⁽⁴⁾، مما جعل لطيفة تسأل رجليها (القاضي) عن موال القافلة:

"- الحادي يناجي وليفة بعيدة، وأولاد كبروا وأم وأب ربما غادروا، وهو ما زال يعيش الغربة.

- بأي لغة يعني؟

- لغة الأشواق واحدة يا لطيفة.

- هل تعرف لغتهم؟

- المجاريح يتعرفون على سر ألم الفراق والغربة"⁽⁵⁾.

(1) أزمنة بيضاء (رواية)، غريب عسقلاني، ص 79.

(2) السابق، ص 43.

(3) انظر: عن بناء القصيدة العربية الحديثة، علي عشري زايد، مكتبة دار العلوم، ط2، القاهرة، 1979، ص 84.

(4) الطريق إلى الخيمة الأخرى (دراسة في أعمال غسان كنفاني)، د. رضوى عاشور، ص 150.

(5) رواية (أزمنة بيضاء)، غريب عسقلاني، ص 37.

فالوليفة البعيدة هي رمز للأرض، لفلسطين، للوطن، وكأن الكاتب يريد أن يقول بأن الهجانة في حالة اغتراب مثلنا، ولكن الفرق بيننا، أنهم إذا أرادوا الرجوع يرجعوا بينما نحن لا نستطيع الرجوع.

إن ملامح المرأة وصورتها قد اختفت في ملامح وصورة الوطن؛ إذ برزت كوطن مغتصب ومجروح، وربما تجسدت خيبة الأمل في عقد القيادة الفلسطينية (اتفاق أوسلو)، (غزالة) في المجموعة القصصية (غزالة الموج) هي رمز لفلسطين بل هي رمز لضياح فلسطين، لقد كشف السارد عن عمق مأساته مع ضياح حبيبته التي لوّثها الخونة بالعار حينما ضاجعوها في مكاتب اتخاذ القرار، ويраهنون على البقية الباقية منها، وهي التي تمثل القبول بالحل الجزئي "...وحدثتني كيف قتلوها، جندوها في أجهزتهم الأمنية، ضاجعوها في مكاتب اتخاذ القرار، وافترشوها على فراش زوجاتهم، واعترفوا لأنفسهم أنهم حاولوا تسويتها... فأصابعهم الخبل والهبيل والجنون، ودخلوا بها الرهان:

- على أي شيء يتراهنون؟

- على ما تبقى مني.

- وماذا تبقى منك؟

حملت ثدييها، وذرفت دمعة فاضت جدول ماء، ومزارع وبساتين، وأزاهير برية وأقحواناً وسوسناً... قالت:

- أترى جدولي وبساتيني؟

... سيعترفون يوماً بأنني الحقيقة⁽¹⁾.

إنه حوار مترع بالإفشاء والبوح، مضمخ بالألم والحزن والانفعال والقهر والتحسر، ويمكن القول: إنه مشهد رعب الدلالة، مفعم بالرموز التي لا تحتاج إلى جهد لفكها وفهمها، لقد أخذ هذا المشهد بعداً انفعالياً عبرّ عن التوترات النفسية، وذلك باستخدام التعبيرات أو المفردات ذات الإيحاءات الغنية بالمعاني من خلال استخدام الكلمات (قتلها، جندوها، ضاجعوها...)

(1) غزالة الموج (قصص قصيرة)، غريب عسقلاني، المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، ط1، رام الله، 2003، ص17. من مجموعة (غزالة الموج)، وهي استدعاءات لرحلة اللاجئين الفلسطيني واغترابه طريداً أينما حل، واستثمار قضيته للابتزاز، وهي ترمز للقضية الفلسطينية التي يتناوب عليها الطامعون سفاهاً وقتلاً وتعدياً، ولكنها في النهاية تعود عودة مبتورة؛ لأنها تنتظر الرقم الوطني الذي يقرره المحتل الصهيوني.

للتعبير عن حجم المأساة في الضياع، ولكن يبقى الأمل من خلال الإصرار على البحث من جديد "...وذرفت دمعة فاضت جدول ماء، ومزارع، وبساتين..."⁽¹⁾.

وفي السيرة الروائية (يوميات الحرب والموت) نرى محاولة عسقلاني استنطاق المدن الفلسطينية حيث مدينة غزة التي ترمز للألم المكثمة التي ابتليت في أبنائها (فتح وحماس) من خلال الصراع الدموي، الفلسطيني الفلسطيني، الذي استعر بصعود حماس إلى سلم البرلمان (2006)، ولا يزال هذا الصراع مستمراً، وربما يستمر سنوات طويلة، ما دام سؤال فلسطين، لم يُجب عليه بعد، "وغزة من دون البلاد ومن دون العباد..."

عندما يرخي الليل سدوله، ويلف السكون الموجودات، تكشف صدرها وتتضرع للواحد القهار:

اللهم خّصني من بلائي في أبنائي..

اللهم اجعني أحيا العيد بدون وداع مَنْ أَحَبَّ..

اللهم عوضني بتوأم شقيقين، وخلصني من توأم الحقد والدم

رحمك.."⁽²⁾. ثمة ملاحظة هنا تمثلت في وعي الكاتب في تحذيره المبطن من الخلافات الفلسطينية الفلسطينية وخطورتها على مسار القضية، ويتوافق الكاتب مع أدباء آخرين في هذا التحذير، أمثال غسان كنفاني في رجال في الشمس 1963، وحتى الروايات التي صدرت في ظل الانتفاضة مثل رواية راضي شحادة بعنوان "الجراد يحب البطيخ" 1990...⁽³⁾

لقد أضفى عسقلاني على المرأة معاني كثيرة لها مدلولات تتعكس على الأرض (الوطن)، فـ(فلسطين) التي احتلت المرتبة الأولى بموقعها الجغرافي ومناخها وحضارتها، جعلت الآخر (المحتل) يقتنص العظمة باحتلالها والتنافس على الفوز بها، ولكنها لم تثمر من المغتصب لأنه لا يوجد بينهما أي صلة تاريخية أو جغرافية أو حقوقية، بينما يقف العربي موقف المتفرج لا حول له ولا قوة، وكأن الكاتب يريد أن يقول أن كل هذه الدولة (إسرائيل) ثمرة مزيفة، يقول السارد: "فازت فاتنتي بالمرتبة الأولى، واقتنص الآخر جائزة الروعة والإمبار... والكل يطالب بالإثمار... أين الإثمار؟

(1) غزالة الموج (قصة)، غريب عسقلاني، ص 17.

(2) يوميات الحرب والموت (سيرة روائية)، غريب عسقلاني، ص 78.

(3) انظر: مراجعات ومتابعات في الرواية والقصة الفلسطينية، شمس الدين موسى، مطبوعات وزارة الثقافة، ط1، فلسطين، 1999، ص 103.

وبدأ الآخر لعبة الخصب ليحني الثمار، فانفجرت عينا حبيبتى أنهاراً مرة ولم تأت

أملك كل أدوات الخصب.. أين الإثمار؟

يصرخ:

مفتاح السر عندي⁽¹⁾.

إضافة إلى ما سبق ذكره من الدلالات الرمزية، فهناك دلالات أخرى منها: المأوى، التجذر، الأمانة، الماضي والتاريخ.

1- المأوى:

من الطبيعي أن يلجأ الفلسطيني إلى الأرض (المأوى)، فهي المكان الأمين الذي يختبئ فيه المناضل، من ذلك ما نراه في قصة "مقاطع من .. أغنيات السامر" في المجموعة القصصية الخروج عن الصمت، حيث يقول: "... وأنا وأبو أمية يطوينا الخندق.. نحمل باقات أخرى حتى تنمو بذور الأزهار في رحم الأرض"⁽²⁾، لقد حملت الفقرة دلالات عديدة، فـ"تنمو بذور الأزهار في رحم الأرض" هي رمز للإصرار على المقاومة المسلحة داخل الأرض المحتلة، و"رحم الأرض" هنا يبرز التلاحم والتواصل بين الفلسطيني وتراب الأرض، حيث تقوم الأرض هنا مقام الأم، والمقاومة لا تقتصر على الأجيال التي عرفت هذه الأرض، والتي عاشت على صدرها، بل مع الأجيال القادمة التي ستحمل السلاح لتقاوم... "حتى تنمو بذور الأزهار".

إن الإنسان أينما رمت به الطرقات، واستقرت به المسالك، يظل متعلقاً بالوطن، ومرتبطاً بأهله، إن فلسطين تجمع كل الفلسطينيين في بوتقة واحدة، وتشدهم إليها سواء كانوا في الشتات، أو فوق تراب الوطن، فـ(المدينة) وهي غزة ترمز للمأوى، للملجأ، من ذلك ما نراه في رواية ضفاف البوح عندما يخاطب الراوي محبوبته: "تلك المدينة تجذبنا إليها لاجئين أو زائرين، تفرض علينا الاشتياق، إنني أراك الآن في تلك المدينة ترضعي بعض حنان زوادة لأيام البعاد..."⁽³⁾.

2- التجذر:

إن البقاء في الأرض والارتباط بها يعني الارتباط بكل ما هو جميل، حتى الموت لا يكتسب معناه بعيداً عن الأرض مما جعل (خضرة) في قصة (حول جُبّ الحيرة) في المجموعة

(1) الخروج عن الصمت (قصص قصيرة)، قصة (مقاطع من .. أغنيات السامر)، غريب عسقلاني، ص 91، 92.

(2) السابق، ص 22.

(3) ثلاثية شمس، رواية ضفاف البوح، غريب عسقلاني، ص 225.

القصصية (غزالة الموج) تصرخ بكل ما أوتيت من قوة "هنا يطيب الموت، لا ترحلوا"⁽¹⁾، خضرة التي رفضت الهجرة والخروج خلف الذين تعلقوا بذيول الفيلق العراقي، إذ يقول الراوي: "كان في حضن خالد يوم أردفهم الجيش العراقي في ذيول أرتاله الراجعة إلى شط العرب، ضيوفاً كراماً حتى تنجلي الغمة وتنتهي الهدنة ويعود السجال، مطبوعة تلك اللحظات على صفحة القلب، قبل أن تهتز الحافلة ويسحبه النوم كان آخر من رأى خضرة وآخر ما سمع قرارها.. خضرة شاهقة، بطنها العامر يشير إلى ميلاد قريب، قابضة على كتف صابر الذي يعشقها كما يعشق الطيور.. خضرة تصرخ:

هنا يطيب الموت، لا ترحلوا... ..

وخضرة الديق صارت في العراق رواية، يتناقلها من أصبحوا لاجئين، كلما اجتمعوا في مأتم أو عرس، يتربح بينهم سؤال خضرة، غصة في حلقهم مرسومة موسومة، وبهاء صوتها يتردد في الوادي، ترده السفوح..

- لا ترحلوا..⁽²⁾ إن المدلولات التي تحملها (خضرة) تنعكس على الأرض وخصوبتها، فالأخضر رمز للأرض قبل أن تسلب، إضافة إلى (صابر) الصابر على الجراح، والذي تحوّل إلى عاشق للأرض، يأبى أن يغادرها، وكأن الكاتب يتماهى مع الشاعر محمد الفيتوري:

ها هنا وارىت أجدادي هنا

وهم اختاروا ثراها كفننا

وسأقضي أنا بعد أبي

وسيبقى ولدي من بعدنا⁽³⁾

إن صورة (الشجرة) في المجموعة القصصية (النورس يتجه شمالاً) تتضمن في داخلها دلالة شديدة الثراء، هذه الشجرة التي تضرب عميقاً في الأرض، ترمز للتجذر والتاريخ والتحدي؛ أي: رسوخ هذا الشعب في أرضه، من ذلك هذا الحوار الذي دار بين الطفلة (نوار)

(1) غزالة الموج (مجموعة قصصية)، قصة (حول جبّ الحيرة)، غريب عسقلاني، ص82. قصة (حول جبّ الحيرة)، قصة مستمدة من حياة عالم الآثار الفلسطيني والخطاط د.(محمد الديق)، ورحيله المفاجئ بالسكّنة القلبية.

(2) السابق، ص 82، 83.

(3) www.alsh3r.com/viewopen.17013.html

والشجرة التي رأتها في الحلم: "وَحَلَمْتُ (نوار)، فَجَاسَتْ حَدِيقَةً، هَشَّتْ لَهَا شَجَرَةٌ بَاسِقَةً..
تَسَاءَلْتُ:

- شجرة وتتحدث؟

قالت الشجرة:

- انظري كيف أضرب في الأرض عميقاً.

وأخذها العجب هو صوت أبيها من خلال الشجرة... استدارت فطوقتها الشجرة ثمارها
قناديل متوهجة..⁽¹⁾.

إن قوى الظلم والاستبداد لا تختلف على مدار العصور، فهي لا تحتكم إلا إلى شريعة الغاب، حيث يدفع الضعيف الثمن باستمرار، من ذلك ما نراه في المجموعة القصصية (الصبي والشمس الصغيرة) وفي قصة (وردة بيضاء من أجل ديفيد) التي تصور البطولات والتضحيات للانتفاضة. يقول الراوي: "تقوم عبد الله ينزف بغزارة.. الجنود يلتفون حوله يمنعون أحداً من الوصول إليه... صبيّة تندفع ترتمي عليه.. تهوي الهراوات عليهما... عبد الله يحدق.. تغيم المرئيات من حوله.. امتصت الرمال الدم النازف... سرى الدم بين مسامات التراب افترش دائرة حمراء قانية..."⁽²⁾. إنه منظر تقشعر له الأبدان، ولا يستطيع عاقل في زمن ظاهره السلام، وباطنه خراب ودمار وقتل أن يستوعب تلك الصورة، صورة القتل، ولكنها صورة تحت الهامات أن تبقى مشرببة لمنظر التراب (الأرض) وهي ترتوي بدماء أبنائها، إن مشهد اختلاط الدم بالتراب أكسبه عمقاً، فتجسّد من بعيد كلوحة كئيبة، وكأنما رسمتها يد شيطان مريد، ولكن هذا الدم أكسب الأرض عمقاً وتجزراً وديمومة، هذه الأرض التي تحمل مدلول التجذر والسمود في وجه المحتل.

وفي رواية (أزمنة بيضاء) التي تدور حول ذكريات الكاتب وهي تحمل أياماً بيضاء قبل أن يبتلّى وطنه بالاحتلال الصهيوني، الذي حول أيامها وحياة أبنائها إلى أيام سود مفعمة بالآلام والغربة والتشرد، واللجوء في المنافي، يقول السارد وهو يتذكر وصية أبيه الذي واره التراب: "مرقدي في حضان الجميزة يا غريب"⁽³⁾، ويؤكد أبوه أن: "الجميزة قديمة في عسقلان، وفي

(1) النورس يتجه شمالاً (قصص قصيرة)، قصة (عندما اشتعلت نوار...)، غريب عسقلاني، وزارة الثقافة الفلسطينية، ط1، 1996، ص102، 103. وقصة (عندما اشتعلت نوار) سيرة لحياة المناضلين إبان الاحتلال، ونظرة المجتمع نحوهم.

(2) الصبي والشمس الصغيرة (مجموعة قصصية)، قصة (وردة بيضاء من أجل ديفيد)، غريب عسقلاني، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ط1، القدس، 1992، ص14.

(3) رواية (أزمنة بيضاء)، غريب عسقلاني، ص14.

عسقلان فقط تطرح سبعة بطون، والجميزة بشرتها لينة مطيعة للخدش، وتنتز حليباً سرعان ما يتخثر عن أثر أزلي...⁽¹⁾. لقد برز هنا تأصيل علاقة الفلسطيني بالأرض، وتجزره بها، من خلال استعادة جوانب من الماضي، والحنين إلى المكان، والجميزة جزء من تلك الأرض، فلا غرو أن يلجأ الفلسطيني إلى حضنها، فهي رمز للتجذر في هذه الأرض، إضافة إلى أن الجميز في لبنه قوة ملينة، وهي ملحمة للجراحات العسيرة، ويحتوي لبنها على مضادات حيوية قادرة على إبادة الجراثيم..⁽²⁾، وفي اعتقادي هذا ما أراد الكاتب الإيحاء به ضمناً من خلال الإشارة إلى الأرض الفلسطينية التي تلمم جراحات أبنائها، والتي تحمل في داخلها التراث والجدور (...). سرعان ما يتخثر عن أثر أزلي)، ولقد وظّف الكاتب الجميزة بصفة خاصة لتحديد علاقته بالوطن (فلسطين)، وشجرة الجميز رمز من الرموز الفلسطينية التي يستغلها عسقلاني في أدبه؛ ليدخل من خلالها بين وقت وآخر إلى فلسطين القلب، فكلمة فلسطين لا تتردد كثيراً في أدبه، بالرغم من أن نفس فلسطين ورائحتها في كل حرف من حروفه، وهو بذلك يستبدل كلمة فلسطين برموز أخرى كالبحر والزيتون والقرنفل وكذلك الجميز، وبذا فإن عسقلاني يلجأ إلى الجغرافيا الفلسطينية بدلاً من اللجوء إلى الاسم مباشرة.

ويتجلى التجذر والثبات في الأرض والإصرار على البقاء، ورفض الخروج منها والتمسك بها، والصبر على الاضطهاد والظلم، وتوطين النفس على التضحيات مهما عظمت في سبيل الرسوخ في هذا الوطن والتجذر به في قول الراوي: "من الأحراش التي تفترش الكثبان الرملية... احتطب الرجل ومضى إلى الربوة المطلّة على الشاطئ... عبّ النسيم حتى الامتلاء... تهيأ وأخذ يغرس الأعواد في أرض الربوة، يقيم العريشة ويشكّل سقفها من صغار الأعواد الطرية... ويحرص أن تتدلى الأغصان الطفلة، تغتسل بخيوط الشمس المغمسة بملوحة البحر"⁽³⁾.

إن الإصرار على البقاء في الأرض والتجذر بها هو أسلوب من أساليب المقاومة والمواجهة والتحدي، هذا التحدي المغلف بالأمل، ففي هذا الحوار بين الراوي وعمه: "الذي يورق عمي لدرجة الموت، هو كيف يصل إلى الأرض بعد أن اعتبرت نطاقاً أمنياً...؟! يعزي نفسه:

- الأرض باقية، لا ترحل ولا تهاجر...

(1) رواية (أزمة بيضاء)، غريب عسقلاني، ص15، 16.

(2) www.alexagn.com

(3) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص5.

- سألزاع الأرض
- ولكنه الحصار...
- سألزاع الأرض⁽¹⁾، يتجلى هنا العشق الشديد للأرض والالتحام الأوثق والأبقى بجسد الأرض.

ولقد برز التلاحم والعشق والتواصل بين الإنسان الفلسطيني وتراب الوطن، ففي قصة (عزف على مقامات الرحيل عن رجال عرفتهم) في المجموعة القصصية (عزف على وتر حزين)، وفي رثاء إميل حبيبي، يقول الكاتب: "الموت يقرر الغياب بصرامة لا تقبل الجدل، يخطفنا ويطوي صفحاتنا.. وهو الذي يحترق في أمر زيتونتنا، وينحني لهامات السنديان، فيتعرف على أسرارنا ويصل إلى قوانين الحياة التي نحيا.. كيف نمضي إلى بطنها؟ نتحلل وندوب في مياه جداولها، ونرضع جذر الزيتون، وتتشربنا السنديانة، فتورق أبدأً، ونحن في جوفها، وكما علمنا جدنا الكرمل العظيم، نهزأ بدورات الأيام فهو القائم مهما تبدلت الأحوال.. هو الحضور في الغياب..."⁽²⁾، إن العلاقة هنا مع الأرض أخذت طابعها الشعري الوجداني؛ فهو يعشق الأرض حتى لتصبح أو يصبحون جزءاً منها، فهي إضافة إلى أنها رمز للتجذر والهوية، هي أيضاً رمز للأم التي تحتضن أبناءها وتدفع فيهم الحياة.

إن شجرة الزيتون عنصر دائم الحضور في النتاج الروائي الفلسطيني عامة، وهي جزء من طبيعة الأرض الفلسطينية، وهي تمثل رمزاً يدل على رسوخ وتجذر الشعب في أرضه، وعلى استمراره في الزمن، كما تتمثل انتماء أرض فلسطين إلى جذرها العربي الذي عرفته منذ أقدم حقب التاريخ، ويتمثل ذلك في رواية (ضفاف البروج)، والتي يؤكد السارد فيها من خلال العلاقة التي يصوغها بين الزيتون والأرض (فلسطين)، يقول الراوي في هذا الحوار بينه وبين محبوبته (شمس): "الرجل يراقبها يهمس:

- حمل زيتونتنا يغيب عن أغصانه سنة بعد سنة.

(1) يوميات الحرب والموت، سيرة روائية، غريب عسقلاني، ص 52، 53.

(2) عزف على وتر حزين (قصص قصيرة) (قصة عزف على مقامات الرحيل عن رجال عرفتهم)، غريب عسقلاني، دار الماجد، ط1، رام الله، 2005، ص47.

مضيا يلتصقان الفروع وأحمالها، يتحسنان ثمار الزيتون⁽¹⁾ مرسومة ملامحها على القطوف.. هو يخاف الوصول بها إلى قلب الشجرة. كيف تنحني للأرض، تغور فيها، تتجذر في أعماقها.. هو الحضور في مقام الزيتون..

من أي زمن يبدأ عمر زيتونة الكرم العتيقة؟!

- اجلسي يا شمس.

خافت من ثقلها على الفرع الذي انغرس في الأرض تسمع خفقات قلبه.. الشجرة تناديها، تعالي فلي مع الحكاية حكاية...⁽²⁾.

3- الأمانة:

إن الفلسطيني الملتصق بأرضه، والمؤمن بقدرة هذه الأرض على النهوض من رمادها إذا ما أخلص لها وأحبها وحاول استعادة (الكنز الثمين) الذي خلفه الأجداد، يقول الراوي في حوار مع أبيه في قصته "وردة بيضاء من أجل ديفيد": "اضطجع أبي في ظل جدار الشيخ عوض... هب أمراً:

- هيا بنا.

تجاوز شيخوخته، ومضى كالسهم إلى التوتة... غرس قدمه عند جذع التوتة، خطا ثلاث خطوات نحو الشرق، توقّف ثم انحرف ثلاثاً نحو الشمال.. وفي منتصف المسافة... نادى علي:

- تعال هنا...

ترددت... تلفتُ أمسح المكان.. ماذا لو رأنا أحد؟...

عاد صوته أكثر إصراراً

- تعال هنا يا ولد.

(1) شجرة الزيتون شجرة عريقة في فلسطين، وعُرفت بها فلسطين... وقد عُرف الزيتون في فلسطين كمحصول عربي؛ لأن معظم زراعته كانت في أيدي العرب... ولعل شهرة فلسطين بالزيتون قد أدت إلى إطلاق اسم الزيتون وزيته على عدة قرى وأماكن في فلسطين، منها: (بيرزيت)، التي يوجد فيها الجامعة المشهورة في مقاومة الاحتلال الصهيوني. ومنها قرية (زيتا)... ومنها (جبل الزيتون) أو كما يسميه العرب (جبل الطور) أو (طور زيتا)... الموسوعة الفلسطينية، مجموعة من الأساتذة، دمشق، 1984، مج2، ص 521-523.

(2) ثلاثية شمس (رواية ضفاف البوح)، غريب عسقلاني، ص 165، 166.

وجثا يخربش بيديه المعروقتين، كنت أحس بنبض عروقه، وكنت خائفاً.. صوت خلفي...

- مَنْ هذا يا محمود؟

ديفيد! وقع ما كنت أخشاه...

- إنه أبي...

قال أبي...

- قل له نريد رد الأمانة!!

- ديفيد، أبي دفنَ هنا شيئاً خاصاً به منذ ثلاثين عاماً، واليوم يريد استرداده.

بهت ديفيد... هرول إلى سيارته... سرعان ما عاد بجاروف دفعه إلي قال بحزم:

- احفر يا محمود

استجابت التربة للجاروف.. صدر أبي يلهث حتى طبَّ سن الجاروف بشيء، رفع العجوز يده، توقفت وراح يزيح التراب بحذر حتى تميزت الوديعة... أخرج والدي قدراً صغيراً من الفخار... نزع أبي خرقة قماش من فوهة القدرة، وأدخل يده يتفقد محتوياتها...، قال:

... هذه القدرة ملكي أنا.

سحب ورقة مطوية عدة طيات... هذا كوشان الكرم مختوم عليه تواريخ الشهود

... سحب ورقة أخرى... وهذا عقد زواجي من صفية.

... وهذا خلخال عروسي، آخر ما تبقى من مصاغها...

وقال:

... وهذه رصاصات بندقيتي التي صادروها...⁽¹⁾.

إن البحث عن الكنز (الوديعة)، والعثور عليه هو عثور على التاريخ، هنا تاريخ الأرض، ويتجلى هنا عشق الأرض وحماتها من كل جديد، وعشق الأداة التي تحفظ هذه الأرض وتعيد الحقوق، عشق البندقية والرصاصات التي افتقدها طويلاً، وكانت سبباً من أسباب النكبة، لقد استجابت الأرض لصاحبها، فالأرض عربية أصيلة تتعرف على أهلها (استجابت التربة للجاروف).

(1) الصبي والشمس الصغيرة (مجموعة قصصية)، قصة (وردة بيضاء من أجل ديفيد)، غريب عسقلاني،

وفي رواية (زمن الانتباه) اتخذ الكاتب (الأمانة) رمزاً لفلسطين، "... والأمانة ما زالت في باطن الأرض، يحرسها صاحب العكازة... ويلهث كلما نبش الصغار قريباً منها..."⁽¹⁾، وبالرغم من أن الرموز بسيطة إلا أنها كثيفة الدلالة، شديدة الإيحاء "تمكّن الكاتب من التخاطب مع المتلقي بشيفرة ذاتية خاصة، لا تحدها حدود، ولا تضبطها ضوابط تقليدية، وذلك عن طريق الدلالات الرامزة، التي تفتح قنوات عديدة؛ لإثراء الانفعال الذي لا ينفصل عن الفكر المصقول"⁽²⁾، وجاء الرمز هنا ليوحي بما يختلج في وجدان الكاتب من آراء تجاه هؤلاء المتخاذلين المتكالبين، الذين يبحثون عن المناصب "...يلهث كلما نبش الصغار قريباً منها" فـ"صاحب العكازة" رمز لفلسطين التاريخية، ورمز للعربي الفلسطيني الأصيل، ورمز للجدود، أما الأمانة التي في باطن الأرض فهي رمز للتجذر في هذه الأرض.

4- الماضي والتاريخ:

تعتبر الأرض ماضي الإنسان الذي لا يمكن أن يعيش بدونها، فهي بعض منه، وهي تجسيد لهذا الماضي وامتداد له، يقول الراوي في هذا الحوار بين الجدة (مزيونة) وحفيدها (محمد العابد) أحد العائدين إلى أرض الوطن "قالت جدتك مزيونة ذات صيف... إذا عُدت يا محمد لا ترضى بأقل من تراب جدك"⁽³⁾، حيث يرمز (تراب الجد) إلى التاريخ، وفيها إصرار على الماضي، حيث لا يبيع ولا مهادنة.

والأرض محفورة في ذاكرة الفلسطيني، واعتبار العودة إلى هذه الأرض هاجساً دائماً في وعيه، ولكنها العودة الكريمة، العودة التي تحمل كل الحقوق، وليس عودة لما تبقى، والقبول بالحل الجزئي في إشارة إلى (اتفاق أوسلو)، حيث تتساءل الجدة وتساءل الحفيد العائد، يقول الراوي: "لماذا عُدت يا محمد العابد؟ ولمن تعود ورفات جدك ما زال في بطن المغارة، والجبل لم تصل إليه الاتفاقية... محظور عليك الوصول إليه... لا شيء لك غير حقيبتك وملابسك القليلة وبعض الأوراق وبعض الصور... هل تعتذر للراجلين؟! وهل عرفوا أن طريق العودة

(1) رواية(زمن الانتباه)، غريب عسقلاني، ص37.

(2) دراسة في لغة الشعر، د. رجاء عيد، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1979، ص35.

(3) رواية (أولاد مزيونة)، غريب عسقلاني، ص148.

الذي سلكته غير ما اتفقوا عليه"⁽¹⁾، إن (رفات جدك) رمز للتاريخ والذات، وفيه إصرار على عدم التفريط بالأرض، وكأني بالكاتب يتمهي مع قول الشاعر (عثمان أبو غربية)⁽²⁾:

عُدنا وهل عدنا وأضرنا أمام قبورنا نارَ

الليالكِ والخيولُ

عدنا وهل عدنا وصارَ الليل يمضي فوق أحلامِ

اللالئِ والحقولُ

5- التراث:

إن الوطن أعلى الأماكن، فمنه يستمد الإنسان كيانه وانتماءه "والمكان ليس حيزاً جغرافياً فقط، فهو أيضاً البشر في زمن معين... والوطن رمز لكل ما مضى... وما على الإنسان إلا أن يفتش عنه في دفاتر الزمن... لإظهار هويته الوطنية والتاريخية"⁽³⁾، والمجدل جزء من تاريخ وتراث وحضارة هذا الوطن، يقول الراوي: "في الحارة، والمدرسة، والسوق، تلفعنا بألقابنا، نعود إلى منابتنا اليافاوي، والبدرساوي، الحمامي واللدراوي والغزاوي...و...و...".

أبي وجدي وخالي وأمي وجدتي يتحدثون عن قضاء المجدل الذي يضم أربعين قرية، المجدل عسقلان المدينة الجنوبية الثانية بعد غزة.. الأسواق والأتوال والأضرحة، زارها النحاس باشا وأعجب بأهلها، وأثنى على نمط الحياة فيها، ومر بها غاندي، وتوقف عند النساجين طويلاً..."⁽⁴⁾، فالمجدل هنا مدينة أثرية لها عمقها التاريخي، وهي الأرض (التراث)، "والمجدل عبر التاريخ، لم تذكر بمفردها، وإنما دائماً مقرونة باسم المجدل عسقلان؛ لأنها كانت ضاحية من ضواحيها... في فلسطين أكثر من قرية أو مكان تحمل هذا الاسم: وهي (المجدل) قرية من قضاء طبرية، ... و(مجدل الكروم)، قرية من أعمال عكا، و(المجدل) قرية من قضاء

(1) رواية (أولاد مزيونة)، غريب عسقلاني، ص147.

(2) عناصر الإبداع الفني في شعر عثمان أبو غربية، د. نبيل خالد أبو علي، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ط1، القدس، 1999، ص82.

(3) المجدل.. عسقلان (تاريخ وحضارة)، محمود صالحه، المركز القومي للدراسات والتوثيق ط1، غزة، 1999، ص5.

(4) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص21.

الناصره... وقد سميت مجدل عسقلان نسبة إلى آثار مدينة عسقلان المجاورة، وتميزاً لها عن أسماء بعض القرى العربية التي تحمل الاسم نفسه⁽¹⁾.

وهكذا يمكن القول: إن الأرض اكتسبت دلالات واضحة بث من خلالها الكاتب ما يعتري في صدره من ألم وحزن حيناً، وأمل أحياناً أخرى، وكيف عبّر عن خلجات نفسه من أحاسيس وأفكار عكست حيناً ملتهباً، عبّر عنه حينما غلبته الآلام وجعلته غريباً عن وطنه.

وبعد، فقد أشرت إلى دلالات ورموز الأرض في أدب عسقلاني، وقد تمثلت في (العرض - العطاء - الذات - الأم والخليفة - ودلالات أخرى)، وكان التعبير الرمزي عن التجذر بالأرض والتمسك بالوطن هو الغالب على الدلالات الأخرى، كما يؤكد سيطرة هذه الدلالات في ذهن الكاتب على سواها، كما يؤكد صدق الكاتب في التعبير عن قضية وطنه ومعاناة شعبه، وقد اتسم التعبير الرمزي المستخدم ببعده عن الغموض أو التلغف بغلالات من التجريد وضروب التعمية وألوان الغريب، وألاحظ أن بين السيرة الذاتية والرواية يتنقل الكاتب بين التاريخ والأرض في سيرته التاريخية والدلالية، وأن كثيراً من أبطاله (غريب عسقلاني) دليل على أنه يُمثّل بلده، ومن تاريخ شقائه يرتد إلى أرضه.

(1) بلادنا فلسطين، مصطفى مراد الدباغ، مج1، القسم الثاني، ص145.

الفصل الثالث

الأرض والتقاليد الفلسطينية

- المواسم وتقاليدها.
- الأفراح والأتراح.
- الأعياد والمناسبات.
- مهن وطقوس.

الأرض والتقاليد الفلسطينية

إن تراث الشعب في كل ميادينه وفروعه صورة لشخصية هذا الشعب ومزاجه، فيه انفعالاته وأحاسيسه وعواطفه وقيمه، ومزاجه الخاص في إحياء الأفراح وتحمل الأتراح، وفي مزاوله الحياة، وتفسير ما وراءها، "فالتقاليد والمعتقدات والفنون الشعبية، هي فلسفة خاصة تميّز شعباً خاصاً من شعب، وتسمّى كلاً بسمته التي تجعله كياناً قائماً بذاته، وتشد أجزاءه بعضها إلى بعض، فتقيم وحدته على هذه الملامح"⁽¹⁾.

لذا تتبع أهمية التقاليد من أنها تقدّم صورة حية صادقة عن حياة المجتمع الذي يمارسها، من خلال دورها الهام في تشكيل سلوك أبنائه، وفي التعبير عن نفسيّتهم وشخصيتهم، وبالتالي عن وجدان شعبهم، وهي وثيقة الارتباط بهوية شعبها فـ"من لا تراث له، لا حضارة له، ومن لا حضارة له، لا تاريخ له، ومن ليس له تاريخ، ليس له وجود"⁽²⁾.

وتنتشر التقاليد في كل مجتمع، وتؤدي الكثير من الوظائف الهامة عند الشعوب المتحضرة وغير المتحضرة، وعند الشعوب المستقرة وغير المستقرة، إضافة إلى تحكّمها في سلوك الأفراد والجماعات، وهذا ما عبّر عنه محمد أيوب في كتابه (الزمن والسرد القصصي في الرواية الفلسطينية المعاصرة) بأن العادات والتقاليد تتحكم في سلوك الفرد اليومي وسلوك الجماعات، في الأفراح والأتراح، في الحل والترحال، في الأعياد والمناسبات، إنها تشكّل منهج حياة يصعب القفز عنه، حتى ولو كانت هذه التقاليد بالية، ولا تستطيع أي منظومة زحرحة بعض العادات التي أصبح لها حكم القانون، أو تجري مع الإنسان مجرى الدم"⁽³⁾.

إن التراث الشعبي ينبع من وجدان الشعب، وهو تراث متفاعل جماهيرياً، ولقد قطّعت النكبة أنسجة الجسم الفلسطيني وتباعدت الأهل، وتفرقت العشائر في الرحاب، وتناثر التراث في الآفاق، ولقد "أحدثت النكبة تحركات سكانية تستعصي على الحصر، وقد تعرّف الفلسطينيون بعضهم إلى بعض في المهاجر، وتعرفت النساء على أساليب القرى الأخرى في التطريز، وشاهد

(1) التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، دار الحمراء، ط1، بيروت، 1993م، ص6.

(2) الحصيدية في التراث الشعبي الفلسطيني، سليم عرفات المبيض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، ص5.

(3) الزمن والسرد القصصي في الرواية الفلسطينية المعاصرة، د. محمد أيوب، دار السندباد، ط1، الدقي، القاهرة، 2001م، ص63 بتصرف.

الفلسطينيون تقاليد القرى الأخرى في الأعراس والمآتم والختان وما إليها. ولكنهم أنشأوا وهم يتعرفون إلى قطاع جغرافي أوسع بالاختلاط والمشاهدة جيلاً قَلماً يعرف تراث قريته وتقاليدها، فيميزها عما اختلط بها من تراث القرى الأخرى، أو من تراث المهاجر⁽¹⁾.

إن التقاليد جزء من ذات الشعب الفلسطيني وواقع حياته، ولم تعد الهجرة عامل تآكل طبيعياً للتراث بالاندماج السكاني، والعزوف عن التقاليد بين جماعات لا تلزمها، بل أضحت الهجرة خطراً محدقاً بكل الذكريات الشعبية، التي أخذت تتلاشى مع كل عجوز يموت، وكل سنة تنقضي. ولقد خصصت هذا الفصل للتقاليد الفلسطينية في أدب غريب عسقلاني، لتبيان الغنى الذي يتمتع به شعبنا الفلسطيني في خزانه تراثه، في أعماله اليومية، في أعياده وأفراحه، وحفلاته الخاصة، وأيضاً في ثقافته القولية، ولا غرو، فهو شعب حي بفطرته وعاداته وطبيعته، وكأني بالكاتب يقوم بمسح شامل للتراث.

1- المواسم والأعياد:

كل شعب من شعوب العالم له أعياده الدينية ومواسمه القومية، يعتز ويحتفل بها، وينتظر اليوم الذي تأتي فيه حتى يشارك فيها بكل أحاسيسه وانفعالاته. ولفلسطين ولمدنها مواسم وأعياد⁽²⁾، وقبل التطرق إلى الكتابة عن المواسم والأعياد في أدب عسقلاني، أود أن أوضح الفرق بين المواسم والأعياد، إذ يغلب على المواسم بوجه الإجمال أنها خاصة بفلسطين وجوارها على الأرجح، فيما الأعياد إسلامية عامة أو مسيحية عامة شبيهة في كثير من الوجوه بأعياد المسلمين أو المسيحيين في غير فلسطين، والمواسم تتصف بالصفة الشعبية، والمعتقدات

(1) التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، ص7.

(2) تعود جذور الاحتفالات بالمواسم الدينية التاريخية إلى العهد الأيوبي، التي امتدت إلى العهد المملوكي في أثناء حكم الظاهر بيبرس. إذ بعد أن تحررت البلاد في عهد صلاح الدين إثر معركة حطين، وكانت استعادة بيت المقدس إلى العرب والمسلمين من الصليبيين، وسمح صلاح الدين... للإفرنج الأوروبين المسيحيين، بزيارة الأماكن المقدسة التي تصادف الاحتفال بموسم النبي موسى في القدس، وموسم النبي صالح في الرملة، وموسم النبي روبين الواقع إلى الجنوب الغربي من رمال يافا، وموسم المنطار في غزة... وهذه المواسم أقامها صلاح الدين الأيوبي بعد انتصاره على الصليبيين، حيث أحدث مواسم خاصة ليضمن تجمع الشباب في أوائل الربيع في مناطق الخطر، يرهب أعداءه، وينطلق من هناك للجهاد إذا استدعى الأمر وهم يركبون خيولهم، ويحملون الرايات، وينشدون أناشيد الجهاد، ويقدمون أنفسهم فداءً للوطن إذا ما صدرت الأوامر لهم. للمزيد، انظر: المجلد.. عسقلان (تاريخ وحضارة)، محمود صالح، المركز القومي للدراسات والتوثيق، ط1، غزة، 1999م، ص210.

المتوارثة، والتقاليد التي ينشأ كثير منها في أزمنة متفاوتة، وربما غير معروفة، فيما يعرف في الإجمال منشأ العيد الديني، وسبب إنشائه، ومبتدأ الاحتفال به⁽¹⁾.

عود إلى الحديث عن المواسم والأعياد، إذ كان يُحتفل بموسم باب الداروم⁽²⁾، (خميس البيض)، الذي يقوم الراوي بإحصاء طرق تزيين البيض بالألوان، فيقول: "في العيد تتفنن نساء الدار في لف خيوط الحرير الفائضة عن حواشي المقاطع (قماس الثوب المجدلاوي) حول البيض المسلوق، فتحل الخيوط ألوانها على قشور البيض تشكيلاً بديعاً تعكس ألوان مقاطع الجنة والنار، والجلجلي، والبلتاجي، وأبو ميتين، والمحير⁽³⁾، بيضتي الملونة تبهر أولاد الحارة، وتثير غيظهم وغيرتهم، فهم لا يملكون من سوائل التلوين غير قشور البصل، وقشور الرمان المجففة، وفي أفضل الأحوال نوار العصفر..."⁽⁴⁾. ويصف الكاتب الأهالي وهم يهرعون للمشاركة في هذا العيد، فتشاهد الرجال والنساء والصبايا والشباب، وهم قادمون بأزهي ملابسهم الشعبية، يقول: "غزة تقذف ناسها، رجالاً ونساءً، صبايا وشباباً، وأطفالاً وشيوخاً، غواية الموسم تتبدى على وجوه الصبايا، حمرة الأشواق والاجتراء على الأصباغ، والكحل حول عيون النساء.. الشباب يتمنطقون بالسيور الجلدية العريضة، مزينة بجرابات الشباري

(1) التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، ص121.

(2) يحتفل بموسم باب الداروم في البوابة الجنوبية لمدينة غزة، التي تؤدي إلى قلعة الداروم. تذهب النساء مع الأطفال إلى المقابر، وهم يحملون البيض المسلوق والمصبوغ... .. وحين يُسلق البيض لهذا النهار، يضيفون إلى مائه نواراً أصفر. وقد يتبارى الناس بمكاشفة البيض، أو المطاقتة... للمزيد، انظر: المجلد.. عسقلان (تاريخ وحضارة)، محمود صالح، ص212، وانظر: الموسوعة الفلسطينية، دراسات الحضارة، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، مج 4، ط1، بيروت، 1990م، ص649.

(3) الجنة والنار: كناية عن اللونين الأخضر (جنة)، والأحمر (نار)، اللذان يرسمان أو يطرزان على الثوب، وخاصة أبناء المجدل والقرى المجاورة لها.

الجلجلي: اسم ثوب تلبسه نساء المجدل خاصة، ولون أرضيته كحلي، وعليه أقلام بعرض بوصة ذات لون بنفسجي.

البلتاجي: له أرضية سوداء، وحاشيتان حمراوتان، يتخلل أطرافها خيوط خضراء وبيضاء وسوداء. أبو ميتين: له أرضية كحلي، وعليه شرائط مستطيلة طويلة، لونها برتقالي ضاربة للحمرة (نار)، وأخرى خضراء بعرض بوصتين (جنة).

المحير: مكون من نصف جلجلي ونصف بلتاجي. انظر: حاشية الحصيد في التراث الشعبي الفلسطيني، سليم عرفات المبيض، ص 190. وأيضاً: المجلد.. عسقلان (تاريخ وحضارة)، محمود صالح، ص 144، 145.

(4) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 5، 6.

والسيوف القصيرة والطويلة... خيول غسلت في البحر قبل أن تولد الشمس...⁽¹⁾. ويستترسل الكاتب في تصوير الطقوس والعادات في هذا العيد، وما يصاحبها من حلقات الذكر، وأفعال الدارويش، والألعاب البهلوانية، يقول الراوي: "شيوخ ومجاذيب، وأصحاب طرق وكرامات، يلعبون بالسنج في لحم بطونهم، لا يسيل منها دم، ولم يند عنهم صراخ وألم أو قتل، عدة سيدي أبو الكاس، وموكب الشيخ بشير، ودارويش السيد هاشم، وأعلام المسجد العمري..."⁽²⁾. ويتكرر المشهد نفسه في مقطع آخر في رواية (أولاد مزيونة)، يقول الراوي: "... كان موسم المنطار، ووقفتُ مع زانة وحليمة مع نساء الحارة للفرجة على خروج دراويش أبو الكاس من جامع السيد هاشم متوجهاً شرقاً إلى المنطار، فإذا بالشيخ أبو صبحه يسير مع الموكب، وقد تقلد مسابحه، ووضع شاراته..."⁽³⁾. ومن هذه المواسم أيضاً، ما يعرف بمقام الشيخ عوض⁽⁴⁾، يقول الكاتب وهو يستذكر أياماً قد خلت: "دبكات المواسم عند مقام الشيخ عوض... وظل القلب يرف، كلما ذكر الشيخ عوض يلهج لسانه، يا حبيبي يا ولي الله..."⁽⁵⁾.

ومن العادات والتقاليد التي عرفت في منطقة غزة في الخمسينات، وكانت تحتفل بها جماهير قطاع غزة، وتستعد لها البيوت، رجالاً ونساءً، خاصة موسم (أربعة أيوب)⁽⁶⁾، وفيه تزحف جماهير غزة إلى البحر، لتغطس عند الغروب في مياهه؛ طلباً للشفاء في هذا اليوم المبارك، أو رغبة في حمل لعروس جديدة، وعريس رافقها إلى معمودية الماء، ويرتبط أربعاء

(1) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 109.

(2) السابق.

(3) رواية (أولاد مزيونة)، غريب عسقلاني، ص 126.

(4) مقام الشيخ عوض موجود في عسقلان، يطل على البحر، وقد تحول إلى خرابة بسبب الإهمال بعد النكبة الأولى، يوميات الحرب والموت (غزة تحترق)، سيرة روائية، غريب عسقلاني، سندباد للنشر والإعلام، ط1، القاهرة، 2010م، ص 141.

(5) رواية (زمن الانتباه)، غريب عسقلاني، ص 16، 17.

(6) أربعة أيوب: إذ ينزل الرجال الذين معهم أمراض جلدية يغتسلون في البحر، حسب المعتقدات الشعبية التي كانت تعزو شفاء أيوب إلى اغتساله بماء البحر، الذي سُمي الموسم باسمه (أربعة أيوب)، والذي أصبح قوة عطاء وتلبية لرغبات من يؤممه؛ طلباً للمساعدة، وفي ذكرى اغتسال أيوب في البحر تزدحم الشواطئ بكل صاحب حاجة، رجل كان أو امرأة "ليلة أربعة أيوب"، وبحر أيوب هو نفسه شاطئ الجورة، الواقع على الساحل المحاذي لمدينة عسقلان، وكان الناس يغسلون الإبل والخيل والحمير المصابة بالجزام... للمزيد، انظر: المجلد.. عسقلان (تاريخ وحضارة)، محمود صالحه، ص 216، 217، وانظر: الإبل في التراث الشعبي الفلسطيني، سليم عرفات المبيض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م، ص 33.

أيوب في التراث الشعبي، بقصة أيوب الصالح، وزوجته نعسة، حيث مرض أيوب، وحيّر مرضه الأطباء، وطال المرض؛ فتوجهت به زوجته، وقد حملته في قفة إلى البحر، وعندما ذهبت لتبحث عن طعام وماء، وقد تركته بجوار البحر في القفة، عادت لتجده قد شفي وتعافى من مرضه الطويل، ولم تتعرف عليه، وهو الذي تركته في قفة؛ لضالة جسمه،⁽¹⁾ يقول الراوي: "النسيم لطيف، وثمة امرأة عجوز، وصبية برقشت بالحناء كفيها وباطن قدميها، تقرفان في الماء، وتواجهان دفع الموج، تلملم العجوز الرغوات وتشرها على صدر الصبية، وتنزلق معها بكفيها، تدعك الجسد اللدن، وتبتهل إلى الله... همس الرجل من عريشته:

- اليوم ليس أربعاء أيوب.

وخطرت له ناعسة، لكن الصبي عفي لا يتكوم في القفة، ولا ينعف الدود منه..."⁽²⁾، لقد نبضت هذه اللغة الرشيفة العذبة بالشاعرية، وحملت نفحات الموروث الشعبي. لقد كان الاستعداد على جانب عظيم من الأهمية بموسم أربعة أيوب دون المناسبات الأخرى؛ لما لهذه المناسبة من ذكريات سارة لاسترجاع الديار على يد صلاح الدين الأيوبي⁽³⁾.

2- الأفراح والأتراح:

أ- الأفراح:

تحدث الكاتب عن التقاليد في المناسبات والحفلات الخاصة، وما يصاحبها من أهازيج وأغان، وما تشتمل عليه من صنوف الزينة والملابس، وما يُقدّم فيها من طعام، ومن هذه المناسبات: حفلات الزواج والختان والمآتم.

أما ما يحدث في العرس، فالعادات والتقاليد الشعبية في فلسطين في موضع الزواج تمر بمراحل: فمن طلب العروس، والخطبة والاستعداد للزواج، إلى التحضير للعرس، وليالي العرس، وحمام العريس، إضافة إلى الزفة وأخذة العروس، والصمدة... إلخ. ففي طلب العروس، عندما يتفق أهل العريس فيما بينهم على العروس التي وقع الاختيار عليها، يُرسل جاهة إلى والد العروس، يطلبون يد ابنته، يقول الراوي: "... وبعد صلاة المغرب، كان أبو خليل والنواتي والعيماوي وخميس يشربون الشاي في عريشة الدالية في بيت سناء، وقبل أن يهيم

(1) ديوان الأساطير، الكتاب الثاني، الآلهة والبشر، فاروق خورشيد، ترجمة: قاسم الشواف، ط1، دار الساقى، 1977م، ص126.

(2) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص6، 7.

(3) المجلد.. عسقلان (تاريخ وحضارة)، محمود صالح، ص212.

النواتي في الحديث، سُمعت نحنة المختار (أبو صبري) يدق الباب للكبارة.. تقدم المختار يتبعه أبو محمد البدرساوي، وابنه الأستاذ خالد العائد من السعودية.. جلسوا وحيّوا الضيوف.. ودار الحديث في أمور الدين والدنيا، وعن الابن الذي يصبح جاراً، وعن البنات الضيفات في بيوت أهليهن، ولما أخذ الحديث وقته، ودار الشاي دورته... أمسك النواتي طرف الخيط.

- الله يمسيكم بالخير يا صاحب البيت، نحن وفي معية الأجاويد والمختار طالبين يد أختكم سناء لابننا خميس... أهلاً وسهلاً، نتشرف يا ريس... وقبل أن يصل الرجل إلى مجلس النساء، أطلقت أم حسن زغرودة، تبعها أم خميس، ولم تكبح سناء فرحتها... عانق أبو محمود خميس، وشده إلى صدره، وأودع المختار مسبحته في جيب صدره ولهج:
- القسمة والنصيب.. الفاتحة⁽¹⁾. وعندما تتم الخطبة، هناك تقليد يتبع بتقديم الشبكة للعروس، وتكون قيمتها حسب مكانة العروس ومقدرة العريس، فهذا النواتي الجد يقدم الشبكة لزهرة (العروس) خطيبة الحفيد، حيث يقول الراوي: "يناولها عشر ذهبات مجيدة⁽²⁾، جمدها النواتي الجد أيام السفر برلك، وخاط عليها جلد حزام السلحلك، قطع بها الأناضول إلى بوابات عكا، واحتفظ بها النواتي الأب شبكة لعروس النواتي الحفيد.. ودارت زهرة بالمجديات على الحضور، قال الأب لابنه العريس: - تذهبان إلى سابا الصايغ، يسكبها عقداً وخاتماً وسواراً"⁽³⁾.

ومن العادات الجميلة، ما يسبق حفلات الزواج من تحضير لهذه المناسبة، والتهيؤ لها، وتوافد المدعوين⁽⁴⁾، وتختلف عدتها تبعاً لقدرة العريس ومكانته، تهيأت الدار للعرس... ورش حوشها بالماء، وأشعل... كانون النار، وجهاز القهوة السادة، وتم استئجار كراسي قصيرة، وأخرى عالية من السوافيري... لجلوس المعازيم، الرجال على الكراسي القصيرة، والنساء على الكراسي العالية، ونصب لوج العروسين، وزين

(1) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 43، 44.

(2) المجيدية: جنيه ذهبي مضروب في تركيا، سمي مجيدي نسبة للسلطان التركي عبد المجيد، حاشية كتاب في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل خالد أبو علي، ص 265.

(3) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 64.

(4) وقبيل النكبة، أخذ الوجهاء والموسرون يدعون إلى الأعراس بالبطاقات، ولكن الدعوة الوجيهة ظلت سائدة، ولاسيما دعوة الأقارب... ويأخذ المدعوون يتوافدون على منزل العريس، أو منزل العروس؛ لأن سهرات التعليلة لا تجمع النساء والرجال معاً، وقد يسهر الرجال في المضافة، أو الديوان، أو ساحة البيادر، وتتجمع النساء في بيت العروس أو العريس، ويتحلق الرجال في ساحة واسعة تضيئها نيران كومة كبيرة من الحطب، حلت محلها المصابيح مع الزمن. للمزيد، انظر: الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، مج 4، ص 597.

بالورود... وعند صلاة العصر توافد المعازيم، أنهت الست كوثر تلبس العروس وزواقها، ورافقتها على اللوج، ودقت الطلبة مع بخثرة العروس...⁽¹⁾. وهناك أهازيج النساء المصاحبة للرقص، ومنها الغناء للحبيبة التي ترتدي الثوب، وتضع على صدرها (الحبيبة)⁽²⁾، فنقول⁽³⁾:

لابسة الحبيبة وثوب البلتاجي

ورايحة تتفرج على الحجاج

طلبت البوسة قالت تاجي

أهلي ورايا بيطلعونا

ويواصلن الغناء بقولهن في أغاني الدلعونا⁽⁴⁾:

يا بنات المجدل ما تزعلنش

إتن بتغلن وما بترخصنش

وبنات برّة ما بينفعنش

كل يوم والثاني بيحردونا

(1) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 145.

(2) الحبيبة: عقد من الذهب، المجدل.. عسقلان (تاريخ وحضارة)، محمود صالحه، ص 175.

(3) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 146.

(4) أغاني الدلعونا تختلف عن باقي الأغاني الشعبية من حيث الشكل والمضمون، تقال بصورة عفوية حسب الظروف التي غالباً ما تقال في المناسبات السعيدة... وتتكون من أربع شطرات تلتزم الثلاث الأولى بقافية واحدة، والشطة الرابعة تنتهي بالآلف أو التاء، انظر: المجدل.. عسقلان (تاريخ وحضارة)، محمود صالحه، ص 174.

وعشية العرس يحممون العريس "وأخذ محمد فارس حمام العريس (1) في حمام السمرة"(2)، وفي يوم الزفاف حيث يصف الكاتب زفة العريس، فيقول: "وصلت الزفة دار العروس، وكان رجال العائلة والحارة في استقبالها، وداروا على الناس بالشراب والماء والنثج... ..، وعند باب الدار، أخذ طه يد حُسنه، وخرج بها إلى حسن(3)، ورقصت زهدية ومزيونة متقابلتين، ونثرت الجدة الملح والأرز، ونثرت زانة القرنفل والفل، وزغاريد موصولة لا تنقطع..."(4). وتطلعنا رواية (أولاد مزيونة) على عرس فلسطيني يعبق بالعبادات والطقوس التراثية التي لم تنطفئ "خرجت الزفة من دار طه وتوجهت إلى دار العروس، يتقدمها طه، الرجال تهندموا بالقنابيز الألاجية، والروزا البيضاء أو السكرية، وشدوا الحطات البيضاء تحت العقال، والشباب هدلوا حطاتهم على أكتافهم، تقلدوا بالعقال، ونفروا غرة الشليش عن تحت الطواقي، أما طه قد تميز عن الجميع بسرّوأل يافاوي أسود، وقميص روزا أبيض، وتزّرن بغبانية شامية، غرس فيها فوق سرته شبرية صغيرة للغندرة..."(5).

لقد اهتم الكاتب بوصف أدق التفاصيل، وكأنه يدون الوقائع قبل اندثارها، مع حفظها للأجيال القادمة، فالأغاني تعطي الشباب مساحة من الحبور، كي يمارسوا حياتهم، ومنهم من يمارس هواياته، فمن "الجريدة إلى نادي العودة، وفرقة الدبكة والأغاني الشعبية، والحناجر تصدح في المكان، تتناغم مع أشجان الناي والكمان، وسيد السامر الأرغول، ومع الناي والأرغول، يراجع خميس أغنيته:

من وراء المنطار
أرض أبوي ياخي
عيني شافت شي
من وراء المنطار"(6)

(1) ويحمي العريس أبوه أو عمه، وربما بعض الشباب من الأقارب والأصحاب، وفي أحيان يتركون الحمام إلى صبيحة يوم العرس، والحمام من الطقوس التقليدية... يرتدي العريس ملابس جديدة، ويهزجون له... للمزيد، انظر: التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، ص 37.

(2) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 144.

(3) تؤخذ العروس العذراء على ظهر جمل من بيت أبيها، ويقود الجمل صديق العريس، أو والد العروس أو عمها... وبينما تتقدم الفاردة بالعروس إلى بيتها الجديد يرش الناس عليها الملح والأرز والملبس وأوراق الشجر الأخضر من الشرفات، والملح يرد الأرواح الشريرة... للمزيد، انظر: التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، ص 37، 41.

(4) رواية (أولاد مزيونة)، غريب عسقلاني، ص 90، 91.

(5) السابق، ص 9.

(6) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 81.

وفي وصف صمدة العروس⁽¹⁾، حيث تبدأ العروس بالرقص، وتعينها إحدى القريبات في التمايل، يقول الراوي: "هبطت حسنة عن اللوج إلى الحلقة، وسط مهاواة النساء والزغاريد، ودارت في الحلقة.. تدور حولها سارة بالطبلة، تنثر دقات خفيفة.. سريعة ثم بطيئة.. يشتد التصفيق، تتحجل حسنة على أطراف أصابعها.. تهدئ إيقاعها.. تتمايل على مدقات كعبيها.. تسبل جفونها.. تحمها سارة في بحر الجورة..

وع بحر الجورة نزلت بنات

أحلى من عليا وسعدى الزناتي

وكم من قتيل في الهوامات

وكم من بنية ماتت محروما"⁽²⁾.

وتضفي النساء أيضاً جو الفرح والسرور من خلال الأهازيج التي تنبض بالعراقية، ومجهولية المؤلف، يقول الراوي: "جدتي فاطمة فرحانة لفرح حسنة، تحضنها وتقبلها، تسحبها للرقص.. ترد عليها كنتها بزغرودة، وتغني:

يا زريف الطول ع البسطة يبيع

بانث غرتها والحاجب ربيع

وأنا يا حلوة في حبك وقيع"⁽³⁾

ومن عادات الأفراح تلك التي تحدث في مجتمع المناطق المتاخمة للبحر، أن تتم الأفراح على شاطئ البحر، مع اللباس الشعبي الذي يعبر عن الهوية الفلسطينية "وعن زهرة التي أصرت أن تزف في صدر البحر، نزولاً عند رغبة الصيادين وعمال الميناء الذين عادوا إلى الشراويل

(1) في الصمدة تبدل العروس ثوبها... وغالباً ما تبدل العروس في مراحل الرقصة أثوابها من أجل عرض جهازها. وقد يهب والد العروس ابنته في هذه الليلة كل المهر إغزازاً لها أمام بيت حميها، وإعراباً عن محبته لها... للمزيد، انظر: التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، ص44.

(2) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص146.

(3) السابق، ص144.

وغابانيات الزنار، وشال الكتف⁽¹⁾، وظهر البحر وكأنه يؤازر ويشاطر أهله تلك الأفراح؛ ليعث فيهم السعادة تناقل أهل المخيم حكاية خميس وسناء، والفرح الذي راحت حكايته يتناقلها الصغار والكبار، فقد كان حمام العريس في بيت النواتي، والجلوة وصمدة العروس في ساحة المصنع، وسهرة الرجال على الشاطئ الذي أُضيء بلوكسات البحرية⁽²⁾. وأود أن أشير إلى أن معظم هذه العادات تجمّدت خلال سنوات الانتفاضة الأولى (1987)، والثانية (2000)، وحلّت محلها عادات آتية هي عكسها تماماً؛ فقد صارت أم الشهيد تزغرد عندما تسمع نبأ وفاة ابنها أو ابنتها، وصار جثمان الشهيد أو الشهيذة يلف بالعلم الفلسطيني، ويزف إلى قبره كعريس أو عروس.

أما حفلات الختان، فهي كالولادة، والزواج، من أهم المراحل في عمر الفلسطيني؛ ولذا يمهّدون لها بأسبوع احتفالات أشبه باحتفالات الزواج، فيرقصون ويغنون ويذبحون الذبائح ويتحنون، وتجتمع النساء وترتدي أجمل الثياب، وأبهى الحلي، ويرقصن لإضفاء جو السرور في البيت .. وتتعلق النساء حول أم بشير بطبتها.. ويبدأ الغناء والتسحيح، يلعلع صوتها، فتوافد صبايا ونساء الجيران، ويعمر الفرّح، وفي الليل تتحول الدار إلى فندق، وتشمر جدتي عن ذراعيها لإطعام الضيوف المقيمين والمغادرين⁽³⁾.

وفي يوم الختان، يستعد أفراد الأسرة لإعداد الوليمة الكبيرة للمعازيم، وتشتمل على اللحم والمفتول، هذه الأكلة الشعبية التي تقدمها العائلات الغنية ومتوسطة الدخل، ولهذه الأكلة طرق تقليدية متوارثة شفويّاً، أو بالملاحظة والتقليد عبر الأجيال في تحضيرها وتقديمها، واستهلاكها يومياً، أو في المناسبات الخاصة. هذا الطعام الذي يحمل الكثير من المعاني والارتباطات في حياة الفرد والمجتمع، هو جزء من هوية الشعب الفلسطيني، يقول الراوي: .. وقبل الضحى كان جدّي وأبو رباح قد سلخا الخروف، وقطّعا، وسلّماه إلى جدتي فاطمة، أفطرنا... أهل الدار والمعازيم على الجبن والعسل والمطبق، الذي تفننت زوجة خالي في إعداده.. وبعد الإفطار قامت النساء إلى لقانات المفتول، وافترش الرجال الحشايا في حوش القاعة، يتنادرون في الحكايات والسّير⁽⁴⁾.

(1) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 62.

(2) السابق، ص 56، 57.

(3) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 68، 69.

(4) السابق، ص 69.

وبعد صلاة الجمعة، يُقدّم الطعام للمعازيم، ثم تبدأ بعد ذلك مراسم الختان، يقول الراوي: "عند الظهر ألبسوني⁽¹⁾ وأخي الجلابيات البيضاء المقصّبة والمطرزة بالعصافير والنخيل، وقلدونا ما توفّر من مصاغ - حبية أُمي، ومشخلع⁽²⁾ زوجة خالي، وعقد جدتي فاطمة، ومجيدية من شطوة جدتي نفيسة، وبدأت حلقة الرقص، والنساء مكحلات مزوقات.. سحبت زوجة خالي أُمي، وأخذنا ترقصان متقابلتين في انسجام غريب على دقات خفيفة، أخذت تتسارع مع نغم الأهزوجة: آه يا ليلي يا ليلي.. جاب لي الكردان يا ليلي.. والشمعدان يا ليلي، من ذهب الشام يا ليلي، رقصتا بالشمعدان والأباريق المسدودة فوهاتهما بعروق الريحان، والنعنع البلدي، ونوار الرمان الأحمر.. فاعت الطبلّة ونزلت النساء والصبايا الراغبات إلى الحلقة.."⁽³⁾. هذا بالنسبة للأفراح والمناسبات السعيدة.

ب- الأتراح:

إن الموت صنو الحياة، فلا موت دون حياة، ولا حياة لا تنتهي إلى الموت، وحينما يموت شخص في مجتمعنا، فإن صيحة إحدى قريباته تكفي لإعلان الوفاة للجيران. تختلف أشكال التعبير عن الحزن حسب مكانة الميت، وكذلك ثقافة أهله، وخاصة درجة إيمانهم، فعندما تفقد المرأة زوجها⁽⁴⁾، الذي يُعدّ السند والظهر، تندبه وتبكيه مدة قد تطول أو تقصر حسب مكانته عندها، من ذلك ما نراه في رواية "أولاد مزبونة": "...وشقت مزبونة ثوبها في الهزيع الأخير من الليل، وصرخت:

(1) كسوة الختان ثوب أبيض فضفاض، وزفة الصبي على ظهر فرس مزينة، مثل فرس العروس، ورقص وغناء وزغاريد، ونقوط كالتّي تُعطى للعروس، وقد يُدعى الناس من القرى المجاورة للختان، فيستقبلون بالزغاريد، وقد يُختنن الصبي في بيت أبيه، أو في أثناء الزفة، ويتحلق الرجال من حوله في حلقة معقودة، ويحنون رؤوسهم حتى تتلامس؛ لسد المنافذ، ومنع الأرواح الشريرة من الاقتراب. للمزيد، انظر: الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، مج 4، ص 590.

(2) الحبية والمشخلع من العقود الذهبية التي كانت تنزين بها المرأة، والشطوة: إكليل مرصع بجنيهات الذهب أو الفضة تزين به المرأة رأسها. حاشية كتاب في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل خالد أبو علي، ص 265.

(3) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 7، 71.

(4) ليست وفاة أحد الزوجين في فلسطين على مستوى واحد من حيث شدة الوقع في جميع الأحوال، فوفاة الزوجة تُعدّ في الغالب أهون شراً من وفاة الزوج؛ لأن الرجل هو المعيل ورأس العائلة... للمزيد، انظر: التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب ص 56.

- آه.. ظهري انكسر يا عمي"⁽¹⁾. ومن مظاهر الحداد⁽²⁾، أن النساء يطلين وجوههن بشحار الطابون، من ذلك من نراه في رواية (جفاف الحلق): "... وعن جدتي التي شقت ثوبها عندما سمعت خبر استشهاد عزات حقي، وطلت وجهها بشحار الطابون، وانطلقت توزع الفاجعة على كل البيوت"⁽³⁾. ومن مظاهر الحداد أيضاً أن أرملة الميت تلبس ثياب الحداد السوداء، وتمتتع عن تزيين نفسها، "... خلعت أساورها وخواتمها، ولقت رأسها بمنديل أسود، ولم تضع كحللاً، ولا مسّ وجهها حمرة ولا بودرة"⁽⁴⁾، حيث كست الفجيرة بدنّها.

وفيما يُعرف بيوم الأربعاء، وما فيه من تقليد، فهناك مَنْ يعدّون الحلوى، ويوزعونها مع الزبيب والقطين على الفقراء، أو يطعمونها للمعزين⁽⁵⁾، "... وفي يوم الأربعاء تجدد العزاء، وزّعت أمي القطين والتمر على مساكين المقابر، وأولمت للأهل والجيران ومقاطع الجامع..."⁽⁶⁾.

ولا تختلف مادب العزاء وذكرى الأسبوع والأربعين والسنة عن غيرها من المآدب، ففي يوم الأربعاء مَنْ يذبح الذبائح التي توزع على الجيران، "يوم أربعين جدي ذبحنا خروفاً سميناً، ووزعت جدتي الجريشة على الجيران، وحملت وفايز اللحم والجريشة لأصحاب النصيب في الجامع..."⁽⁷⁾.

(1) رواية (أولاد مزبونة)، غريب عسقلاني، ص 69.

(2) من مظاهر الحداد... أن النساء يطلين وجوههن بسخام القدور... فيمتنعن عن الاغتسال أربعين يوماً، ويُعرضن عن مشط الشعر والتبرج ولبس المصاغ وغسل المنديل ولبس الثياب المزركشة، وحضور الأفراح، وعمل الكعك في الأعياد... للمزيد، انظر: التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، ص 68.

(3) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 106.

(4) رواية (أولاد مزبونة)، غريب عسقلاني، ص 69.

(5) انظر: الموسوعة الفلسطينية، دراسات الحضارة، مج 4، ص 616.

(6) رواية (عودة منصور اللداوي)، غريب عسقلاني، منشورات دار الزهرة، ط 1، فلسطين، 2002م، ص 35.

(7) رواية (أولاد مزبونة)، غريب عسقلاني، ص 116.

3- مهن وطقوس شعبية:

إن التراث الشعبي لم يأت من العدم، بل من تجارب وخبرات استقرت في ذاكرة الأمة، هذا التراث الذي صنعه أجيال متعاقبة على مر العصور، وهو الدال على أصالة شعبنا، وارتباطه بهذه الأرض التي تضرب جذوره في أعماقها، وهو الدليل الحي الباقي على الشعور الجماعي للأمة، بما تحمله من طوابع محلية في العادات المتبعة بين الناس فيما يضطربون فيه من طقوس، تشمل ألواناً عدة، منها: ما يتعلق بالحرف المتداولة في فلسطين، كالصيد، والنسيج، والفخار، والتطريز، والأزياء الشعبية...، إضافة إلى النداءات الشعبية التي تتردد على ألسنة الباعة المتجولين، وكذلك توظيف المثل الشعبي، والأساطير والخرافات والمعتقدات، وهذا ما تجلّى لي في هذه الدراسة، عندما اختلست النظرات من نوافذ القصص والروايات، فسمحت لنفسي بالتسلل إلى الروضات، فحيرني بديع الزهور والزهرات، فلم أملك إلا أن أذرف العبرات؛ على العبق الذي أشتمه من هذا التراث، وأول زهرة تعبق المكان ببشرها، أقتطفها وأحاول التغلغل إلى عالمها من خلال عالم البحر، وارتباطه بمهنة الصيد التي امتهنها الفلسطينيون، والتي كانت حياتهم من خلالها حافلة بالمعاناة، فإمكاناتهم محدودة: مركب، فلوكة، شختورة، شباك وسنانير، ولا تتجاوز المساحة التي يعملون بها حدود شاطئ قطاع غزة؛ لما يواجهونه من صد من الصهانية، ونحن أمام ضروب من وقائع الحياة اليومية للصيادين على الشاطئ من إعداد للشباك، أو ممارسة مهنة الصيد بالسنانير أو الشباك: "مع الفجر فردا العدة، وأخذاً يرتقان عيون الشباك الممزقة؛ تهبوا للصيد، كالعادة يتفقدان العدد والشباك قبل النوة"⁽¹⁾، حمدان يسوي ويسلك خيوط الرتق خلفه، سنارة (أبو علي) الذي يحبك العيون الممزقة، ويتابع بطون الأمواج.. لمعت الأسماك في بطن الماء، ألقى الصنارة لحمدان، سنفطر بطناً لذيذاً... ومضى بشبكة الطرح حتى ضربه الموج إلى صدره، وعندما تطاولت الموجة، نوح بالشبكة وطرحها، ففردت عباها، وحطت على بساط الماء... تراجع إلى البر، وسحب خيوطه، وسحب سرب المرمير، زعق: أوقد النار يا حمدان"⁽²⁾.

ويؤكد الكاتب على معرفته الواسعة والدقيقة بمهنة الصيد، وخاصة في ذلك الوصف الدقيق لعملية الصيد بأنواعها وأساليبها المختلفة، واستخدام الطعوم المناسبة، نجدها في هذه اللوحة "وعندما أصبحوا في صدر البحر، ألقيت المراسي، وبقي النواتي قابضاً على الدفة،

(1) النوة: من النوء وهو النجم الذي يكون به المطر. انظر: لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، ص 4568.

(2) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 52، 53.

شاخصاً نحو المنارة، لم تُشعل الشنابر، وأُقيت الشناشير في ضوء القمر، ولقمت السنائير بطعوم من فسيخ الجرع وشرائح البصل الفحل، مما أثار شهية واستهجان الصيادين، قال العيماوي:

- ذكور اللوكس الشبقة تجذبها ملوحة الفسيخ ورائحة البصل، تستثير فحولتها فتصعد إلى صفحة الماء تمارس ألعابها. وقبل أن تغوص السنائير في بطن الماء، كان النواتي... قد جدّف شمالاً حتى أصبح بقعة من رغوة لامعة تظهر على الأديم الأزرق وتختفي⁽¹⁾.

لا يمكن أن نتخيل إنساناً من غير مهارة يدوية، وإن الحرف الأولى التي كانت تصنع للإنسان الأول أدوات عيشه اليومي، تحولت من وظيفتها النفعية إلى فنون يُظهر فيها شعب مزاجه القومي، ويعبر بها عن مشاعره ومعاييره الجمالية، وفلسفته الاجتماعية، ومن ذلك الزهرة الثانية وهي صناعة النسيج في بلادنا⁽²⁾، وما يرافقها من عادات وتقاليد تراثنا الشعبي، وقد اكتسبت هذه الصناعة شهرة كبيرة، من حيث قيامها على العمل المشترك بين الرجل والمرأة، مما أتاح الفرصة للجميع أن يساهم في تطورها وازدهارها⁽³⁾.

لقد نسج الكاتب خيوطاً زهية لعمال النسيج، تزهو كما تزهو الأرض في فصل الربيع ببساطها الأخضر وأزهارها الجميلة، إذ وصف أدق التفاصيل عن صناعة النسيج، ومصطلحاتها وأدواتها، وراح يداعب ذكرياته التي يشعر كأنها تحدثه وتمنحه شحنة من الحنين، وتسرد أمامه الصور النابضة بالحياة، فتعيش فيها الذاكرة لحظة حاضر تستند إلى ماضٍ حي متوهج، يقول الراوي: "أدور حول أبي الذي اعتصم بحرفته الأولى، ونصب نوله⁽⁴⁾، وصل الليل بالنهار، مدفوناً في جورة النول، خلف خيوط السداة (يترسك)، تساعد أمي خلف دولابها، تعبئ فوارغ مواشير اللحم، وتدور مع لفات شلخات الغزل على محيط الطيار..."⁽⁵⁾. وفي هذه المهنة كان

(1) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 20، 21.

(2) ظهرت حرفة النسيج في فلسطين أيام الكنعانيين... وتأثر الأراميون بالكنعانيين، وبخاصة في الفنون على اختلافها. ولدينا من شتات تاريخ النسيج أن الإمبراطور البيزنطي جوستنيان أمر في القرن السادس الميلادي بجلب شرانق دود القز من الصين، وحث على نسج الحرير في غزة وعسقلان؛ لأن الفرس الساسانيين كانوا يحتكرون تجارة الحرير ويمكسونها مكساً باهضاً. انظر: الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، مج4، ص 689.

(3) المجلد.. عسقلان (تاريخ وحضارة)، محمود صالح، ص 36.

(4) النول: آلة نسج القماش، ظهرت منذ خمسة آلاف سنة، وكان الفلسطينيون يكتسون بنسج أيديهم. الموسوعة الفلسطينية، دراسات الحضارة، مج4، ص 689.

(5) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 3.

يشارك الرجل والمرأة، إضافة إلى الأولاد، ويظهر ذلك من هذا الحوار، الذي يسترجع فيه أبو يوسف أياماً خلت "كان أيامها النول يدوي يا حسني... ولما علمني الوالد - رحمة الله - ... كان يربطني جنبه طول النهار... ولما يروح يصلي الظهر أو العصر، يقوم ببيل ريقني، وأشتغل ربع متر.. يرجع يلاقيني مخربش (المسداية)... ويقوم بالعصا ... يخربش جلدي..."⁽¹⁾. وكان أهل الحرف منتظمين فيما يشبه النقابات... فالحرفيون اقتبسوا عن المتصوفة ضرباً من نظام الفتوة، ظلوا يتبعونه في القرن السابع عشر الميلادي، وذلك هو نظام الشد. وخلصته أن على كل صاحب حرفة أن يعرف راعي حرفته، وينتسب إليه. فالخياطون راعيهم إدريس، والنجارون ينتسبون إلى نوح، والحلاقون إلى سليمان الفارسي⁽²⁾، والنساجون إلى النبي شيت، كما تصوره الراوي، إذ يقول: "... حرفة الخيوط والنسيج وقفت على أهل المجدل منذ أيام النبي شيت، النبي الذي سمعتُ جدي أكثر من مرة يعاتبه ويتمرد عليه، ويلغنه، ... وبحثت عن النبي شيت دون جدوى، فاعتمده على إيمان جدي نبياً ورسولاً للغزل والنسيج، ومهندساً أزلياً للنول..."⁽³⁾.

إن صناعة النسيج جزء لا يتجزأ من تراثنا الحضاري، فاعتماده على النول تأكيد وتوثيق لهذا التراث، وحفظ له من السطو والتشويه من المحتل الذي يريد السيطرة على الأرض، واقتلاع الفلسطيني من جذوره، وهذا ما يؤكد الراوي في قوله: "ذيب المصري وجدي يجوبان الشجاعية، ومخيم الشاطئ، وجباليا؛ بحثاً عن عمال، والعمال نصبوا أنوالهم في بيوتهم... يعملون لحسابهم أو لحساب المعلمين.. جدي يعود منهكاً ينفخ ويتساءل: هل تغيرت أحوال الصناعة، وتبدلت قوانين القاعات؟ يرى في التبدلات إيداناً بانقراض وصايا شيت رب الصناعة.. ويؤمن بأن سيدنا النبي غاضب على أهل المجدل؛ لأنه زرع الأنوال فيها، فنصبوها في غير موضعها..

خالي يعاتبه:

- أي هي الأنوال شجر تزرع وتقلع؟

- النول شجرة.. كل نول يستر صاحبه، ويفرغ نولاً ثانياً وثالثاً..

(1) رواية (زمن الانتباه)، غريب عسقلاني، ص 86.

(2) انظر: التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، ص 216.

(3) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 6.

مثل الشجر يتفرع وتطرح ثمرًا وبذورًا تعطي شجراً.. كل الأنوال اللي انت شايفها أصلها نول واحد..⁽¹⁾.

والمهنة الأخرى التي لا تقل أهمية عن النسيج هي صناعة الفخار⁽²⁾، وترتبط هذه المهنة ارتباطاً وثيقاً بتراث الشعب الفلسطيني، ويظهر ذلك من خلال الشعور بالأسى والتحسر والحنين، من خلال قول الكاتب: "... وها نحن يا امرأة تطارنا المطارح، لا الحوارى بقيت على بكارتها، ولا صانع الفخار ظل في مجلسه، قدمه تلعب على دواسة الدولاب، لم يعد في حارة النواطير من يُكوّر بطن الأباريق، ولا من يُجوّف الأصص والجرار..."⁽³⁾.

وهناك مهنة تنظيف وكى الطرابيش، ويسترسل الكاتب في وصف مراحل التنظيف والكي، في قوله: "... للكي والتنظيف عند فيليب ظريفة مكوجي الطرابيش.. يبهرني البخار المتصاعد من لباد الطربوش المغسول والمشدود على القالب، يتنفس بخاراً، يتسرب من ثقوب القالب، المقبضان الخشبيان يحركهما المعلم حركة نصف دائرية في اتجاهين معاكسين، يتوقف عن الحركة عندما يلفظ الطربوش زفيره.. ويغدو صقيلاً جافاً ناعماً..."⁽⁴⁾.

والزبي الفلسطيني من أقدم الأزياء في العالم، وعلاقته بمنتجات البيئة في فلسطين وبحاجة الإنسان فيها، علاقة قائمة منذ أوف السنين⁽⁵⁾، فالرجال يلبسون أثواباً طويلة بيضاء في أيام الأسبوع، وينتطقون بزنانر عريض، يدلون منه السلاسل والأكياس والخناجر والمسلات والخيطان والغلايين، وأكياس التبغ، والأمشاط والمناديل والأوراق، ويعتمّ القرويون بوجه الإجمال بعمائم رمادية أو صفراء فوق الطرابيش⁽⁶⁾، وهذا ما يرويّه الكاتب في قوله: "... أبي

(1) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 160، 161.

(2) كانت فلسطين من أوائل البقاع التي تستخدم فيها الفخار... يصنع الفخار بدولاب الخزاف وهو يدار بالأرجل، ثم تنقش عليه الزخارف باليد، ويشوي في أتون قليل الغور تحت موقد نار... وقد اشتهرت غزة بالفخار لأن طينها قليل الحديد، صالح للخزافة... وقد حمل الغزيون صناعة الفخار معهم في هجراتهم في الحرب الكونية الأولى الخليل والناصره ونابلس... وفي المدينة حي الفواخير، وفي جواره تل السكن؛ أي: تل الرماد الذي تجمّع من صناعة الفخار... للمزيد، انظر: الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، مج4، ص 684.

(3) ثلاثية شمس (متوالية روائية)، رواية ضفاف البوح، غريب عسقلاني، ص 159.

(4) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 42.

(5) انظر: الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، دراسات الحضارة، مج4، ص 691.

(6) انظر: التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية، في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، ص 231.

بالقمباز⁽¹⁾ الروز الأبيض، وجاكت الشركستين السمني، تتدلى على صدره سلسلة فضية، تنتهي بساعة جيب ترقد في جيب صدر القمباز، تتكئ على الحزام المشدود على بطنه النحيل، الحذاء الأسود برقبة عالية، والطربوش أبو زر مثبت على الرأس الصغير...⁽²⁾.

وثالث هذه الزهرات هي النداءات الشعبية، التي تتردد على ألسنة الباعة في الأسواق الشعبية، أو في الشوارع بين البيوت، إنها تخرج في بعض الأحيان ذات تركيبات مموسقة، وجمل مصنوعة فيها الإيجاز، وفيها التشبيه، وفيها الطرافة، فقد نسمع بائعاً شعبياً يبيع الخيار، "أصابع البوبو يا خيار أمو بتحبه يا خيار"⁽³⁾.

وأقطف الزهرة الرابعة التي تنبض بالعراقة والسيرورة الشفوية، وحكمة الشعوب (المثل الشعبي) الذي هو "تعبير عن نتاج تجربة شعبية طويلة تخلص إلى عبرة وحكمة، وتؤسس على هذه الخبرة للحض على سلوك معين، أو للتنبيه من سلوك معين...، والأمثال أشبه بالراوي الشعبي الذي يقص قصة موجزة... ومجموعة الأمثال الشعبية... تكوّن ملامح فكر شعبي ذي سمات ومعايير خاصة... وهي جزء مهم من ملامح الشعب وقسماته وأسلوب عيشه ومعتقداته ومعايير الأخلاقية"⁽⁴⁾.

كثير من حكم الشعب الفلسطيني ثرية ثراء لا يوصف، إذ جعلت لكل حال حكمة، ولكل احتمال عبرة، فعند بلوغ البنت سن الزواج، يقول الكاتب: "المشمش أوانه حلو مثل السكر، وإن مر عليه الوقت يذبل"⁽⁵⁾. وفي مجال البحر وما ترتبط ببيئته، يقول الرئيس أبو علي، وهو

(1) القمباز: هو رداء طويل مشقوق من أمام، ضيق من أعلاه، يتسع قليلاً من أسفل، ويرتدون أحد جانبيه على الآخر. وجانباه مشقوقان حتى الخصر. وقنباذ الصيف من كتان وألوانه مختلفة، وأما قنباذ الشتاء فمن جوخ، ويلبس تحته قميص أبيض من قطن يسمى المنتيان. للمزيد، انظر: الموسوعة الفلسطينية، مج4، ص 692.

- ويلاحظ أن التراث الشعبي في فلسطين ينتمي إلى تراث المشرق العربي على صعيد الملابس أيضاً، حتى إذا ما اقتربت من الديار المصري، غلبت الجبة والشال، والثوب المخطط ذو الأكمام الواسعة، والياقة المستديرة على الصدر والحزام العريض، وإذا جنحت شمالاً غلب السروال والصدريّة وزهت ألوان أثواب النساء...

للمزيد، انظر: التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، ص 231.

(2) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 42.

(3) رواية (زمن الانتباه)، غريب عسقلاني، ص 69.

(4) التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، ص 191، 192.

(5) رواية (أولاد مزبونة)، غريب عسقلاني، ص 127.

يلوك سمك المرمير الدسم: "المرمير ملك الشط لولا أشواكه" فيردون: "لولا أشواكه ما أصبح ملكاً"⁽¹⁾.

أما في التقريظ وإظهار عظيم الأفعال رغم ضآلة الحجم، يستحضرُ الراوي المثل من قول أمه: "الرجال مخابر مش مناظر.. حبه قليلة وفعله كبير"⁽²⁾.

أما فيما يتعلق بالحض على التشبث بالأرض التي هُجّر منها الفلسطيني، يقول الراوي: "شمّل سنة ولا تقبل يوم"⁽³⁾. وفي مجال النهي عن ملاحقة لصوص الخيوط من الصبيان والسفهاء في السوق، يقول الجد: "الشر شرارة، وفي المال ولا في العيال"⁽⁴⁾. ويجدر إلى أن استخدام المثل الشعبي في العمل الروائي، يُحكى في العادة بتلقائية تتم عن خبرة في تكثيف، كما أنه جزء من نسيج السرد⁽⁵⁾.

ومن هذه الأمثال والأقوال المأثورة التي تتسم بالأصالة، وفيها معالجة نفسية لكثير من الأمور تتم عن فهم كامل لخبايا النفس البشرية، وفيها كذلك خبرة بأصول التوجيه، يقول العيماوي: "كل داء دواء حتى سوس الخشب يا حمدان... الصنعة مثل الخل الوفي، إذا خدمتها تعطيك أسرارها"⁽⁶⁾. وأيضاً ما قيل في انتقاد التكاسل عن العمل: "الرجل يتقصع في ظل المراكب، وأطفاله قطايم لحم"⁽⁷⁾. أما في مجال رفض الاعتماد على الصدقة، يقول الراوي: "لازم نأكل من عرقنا يا خالة، خبز الصدقة لا يسري ولا يمري، ويورث كسيرة النفس"⁽⁸⁾.

تُعدّ الوقاية من العين أهمّ التعاويذ، ففي مجتمعنا الفلسطيني تُزاوّل من قبل الأمهات أو الجدات طقوساً لطرد عين الحسود، وتزاوّل على أنها علاج شعبي لإزالة تأثير هذه العين الحاسدة، تقول الأم (أم حسن)، لترد العين عن ابنتها التي تتمتع بجمال ليس له مثيل: "اللهم، لا حسد، وتتعوذ من الشيطان الرجيم ثلاثاً، وتبصق في عبا بصقة جافة، تطرد الشياطين من

(1) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 52.

(2) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 42.

(3) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 104.

(4) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 76.

(5) في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل أبو علي، ص 267، 268.

(6) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 68.

(7) السابق، ص 17.

(8) السابق، ص 87.

المكان، ومن عيون النسوة المتحلقات حولها...⁽¹⁾، وأيضاً ما تفعله الجدة التي تخاف على حُسنة من العين، وهي ترقص في عرسها "جدتي تبصق في عباها، تخاف الحسد والعيون التي تفلق الحجر"⁽²⁾.

ومن التقل بين هذه الزهرة وتلك، أقتطف الزهرة الأخيرة في هذا المبحث، والتي تطرّق الكاتب فيها إلى جانب من المعتقدات الشعبية، والملاحم الأسطورية، فـ"المعتقدات والأساطير لم تبدأ أو تنشأ عند الأمم أقاصيص مسلية يتندّر بها الناس، بل كانت في غابر الزمان عقيدة دينية تحاول تفسير نشوء الكون والخليقة، والظواهر الطبيعية الخارقة، فتخيّل لها الإنسان من داخلته وخياله تفسيراً أصبح ديناً وعقيدة قبل الرسائل السماوية، فلما جاءت الرسائل بالتفسير الديني الموحى به، تحولت العقائد الدينية الأولى إلى خرافات وأساطير ورواية شعبية تتداولها الأجيال وتتوارثها..."⁽³⁾.

ومن هذه المعتقدات اللجوء إلى البحر، وممارسة طقوس تراثية أقرب ما تكون إلى الأسطورة، من أجل استمرار الحياة، ومنح الوجود لأجيال تشكل الأمل باستمرار الأجيال وتوارثها، فهذه أم تصحب ولدها وزوجته إلى ماء البحر؛ أملاً في الإنجاب "يا رب، يا علام الغيوب، ربّيته وحيداً يتيماً، يا رب يا رحيم، لا تأخذني قبل أن تكتحل عيناى بولده"⁽⁴⁾.

ومن هذه المعتقدات أيضاً ما عُرف بـ (مقام الشيخ عوض) - على ما سلف - والاستجداء به طلباً للشفاء، فهذا رجل يقوم بتقريب ابنه، الذي أصيب بالرجفة على إثر صقيع الثلجة⁽⁵⁾، التي ضربت خيام اللاجئين في الهجرة الأولى، يقوم بتقريبه من المقام، يقول الراوي: "لن تفارق عبد الله الرجفة حتى يتدفأ على نار حطب زيتون عسقلان عند أعتاب ولي الله الشيخ عوض، وبعد أن حلت النكسة بالعرب وتوحّدت الأراضي الفلسطينية من جديد تحت الاحتلال.. قال جدي:

(1) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص10.

(2) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص111.

(3) التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، ص6.

(4) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص7.

(5) عام الثلجة في تقويم أهالي غزة هو العام 1950، حيث تساقط الثلج بصورة لم تعهدها الديار الغزية، وسببت الريح اقتلاع خيام اللاجئين، ما نتج عنه عدد كبير من العباد أغلبهم من الأطفال الرضع، ولأن تسجيل المواليد كان بذخاً تعرفه المدينة فقط، اعتبر الناس عام الثلجة فصلاً بين ما قبله وما بعده. يوميات الحرب على غزة، سيرة روائية، غريب عسقلاني، سندباد للنشر والإعلان، ط1، القاهرة، 2010م، ص140.

- لعله خير..

وفي أربعينية أول شتاء أعقب النكسة اصطحب ابنه... إلى المقام، واحتطب من فروع الزيتون فروعاً جافة، وأشعل النار... وأمر عبد الله أن يتدفأ على النار عارياً كما ولدته أمه بين صاحب المقام، الذي لا يخذل طالب رحمة أو صاحب حاجة... ولكنهم حاصروا المقام [الاحتلال] واصطحبوا أبي عارياً.. ورجع جدي بثياب أبي صامتاً، وقضى أبي عقوبة السجن بتهمة التخريب.. وظل أبي في حيرة من أمره يبحث عن سبب اعتقاله وما زال.. ولكنه سُجِّل في القوائم الأولى من المعتقلين..."⁽¹⁾ وهذه امرأة تجمع أصداف لسان البحر، وتمارس طقوساً خاصة، يقول الراوي: "... وتجمع أصداف لسان البحر، تدقها لتفرك كفيها وباطن قدميها، وتعجن خلطتها الناعمة بماء الورد ومنقوع النعناع البلدي، تسوك أسنانها لتبقى على نساعتها"⁽²⁾.

وهناك مظهر من مظاهر هذه المعتقدات الشعبية، والتي انغمس الفلسطيني في أتونها، ما جاء على لسان الراوي، والمتمثل في قول والد الزوج لزوجته ابنه في يوم صبيحتها، عندما أوصاها: "اسقي عرق الدالية، يبقى عودك أخضر يا صافية"⁽³⁾، ويعكس ذلك ويجسد الرغبة بأن تبقى المرأة مثمرة، وفي ثناياه يحمل معاني الحض على الاعتناء بالشجر.

وفي قصة (الفتيات والبحر) في المجموعة القصصية (عزف على وتر حزين)، يطالعنا طقس من الطقوس الشعبية، ألا وهو الاستحمام بماء البحر لجذب العرسان للفتيات، إذ تقول الزوجة (الأم) لزوجها بعد صلاة العشاء: "يا رجل، لو يتسع صدرك قبل أن تنام؟

- قولي يا امرأة

- البنات استجرن بي، لو يلامس البحر جلودهن، ويتعرفن على ملوحته.

تمتم... وفح في وجهها:

- في هذا الوقت..؟ من يضمن الشاطئ؟

(1) يوميات الحرب على غزة، سيرة روائية، غريب عسقلاني، ص 139، 140.

(2) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 17، 18.

(3) السابق، ص 18.

- اليوم قبل الغد، بركة البحر مطلوبة... لجذب العرسان⁽¹⁾،

إن الطقوس التي تمارس، إما بغرض التطهر، أو الاغتسال في ماء البحر، وغير ذلك، يشبه ذلك الكثير من "الاعتقاد بالتمائم، وطلب البركة من الدراويش، وأضرحة ومقامات الصالحين"⁽²⁾.

أما فيما يتعلق بالحكايات الشعبية، فهناك حكايات الجدات عن الغولة والأشباح⁽³⁾، من ذلك ما ينقله الراوي من حوار الجد مع الجدة، حول خوفه من الشبح، وكيف عالجه من تأثير الخوف على صحته ".. ناسي يوم ما طلع عليك القليل، وصلت الدار ترتجف، وحطينا عليك كل لحافات الدار عالفاضي، وصبّحت مريض، وحيلك مقطوع، لولا الشيخ أبو صبحة، مرّجك ودعك بدنك بالزيت، وظل وراء الخوفة لما طردها..."⁽⁴⁾.

وهناك قصص الجان، حيث الجنية⁽⁵⁾ التي انتشرت في حكايات التراث الشعبي، والتي تتبدى للصبّي في هيئة غجرية في رواية (أولاد مزبونة)، "وأشيع أنها جنية تبدّت للصبّي في هيئة غجرية، سحرته وعادت به إلى بلاد الجان في الأرض السابعة، وأنجبت منه بنات مثل القمر، يرضعن أسبوع، وتكتمل أسنانهن، فيصعدان إلى دنيا الإنس نوريات في صورة(نرجس)، ويعدن إلى مملكة الجن متبوعات بعمرسان"⁽⁶⁾. ومن المعتقدات الشعبية، قصة الحية الألفية التي تتآخى مع الدراويش، وهي التي تحرسهم وترافقهم أينما حلوا "... ويتحدثون

(1) عزف على وتر حزين (مجموعة قصصية)، قصة (الفتيات والبحر)، غريب عسقلاني، ص 41. وقصة (الفتيات والبحر)، فنتازيا ساخرة حول التشدد التربوي تحت ستار الدين.

(2) في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل خالد أبو علي، ص 269.

(3) كان الناس إذا مروا في الليل فرادى في أماكن ظهور الأشباح والشياطين، وتراءى لهم روح شيرير، يسرعون إلى ذكر اسم الله، والتسلي عن الخوف بالغناء بصوت قوي، وقد يركضون من المكان، ومن يصل إلى البيت خائفاً من شيطان تراءى له، يسقونه ماء من طاسة الرعبة أو الرجفة. انظر: التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، ص 145.

(4) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 107.

(5) وليس للجنية سلطان على الرجل إلا إذا استطاعت بجمالها وسحرها أن تسكره، وأما إذا ظل على وعي كامل، فليس في استطاعتها أن تسكره، ولعلها تستدرجه... فيصبح أسيرها، والجنيات غيارى على من يخترن من الرجال، ويعاقبن أي امرأة تُبدي تودّد لرهينتهن. للمزيد، انظر: التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، ص 139.

(6) رواية (أولاد مزبونة)، غريب عسقلاني، ص 13.

أن الحية⁽¹⁾ تأخت مع سيدنا الشيخ تاج الدين الخروبي، ووقفت عند باب الكهف تحميه من جنود الجزار يوم طلب رأسه، ويقال أنها كانت تسعى خلف الشيخ أينما ذهب، وتقف على ذيلها عندما يدخل على الشيخ مدسوس في زي طالب حاجة، أو سائل مشورة، يرفع الشيخ يده إلى السماء يحدثها: لله الأمر يا مبروكة، تهمد، وتلف طولها كعكة كبيرة، تتوسد التراب...⁽²⁾. وهناك ضريح شمشون الجبار⁽³⁾، وأسطورة قوته المتمثلة في شعره، وكيف استطاعت دليلاً أن تقص شعره، وتسلبه سر قوته، ويحدثني عن دليلاً، وكيف قصت شعر شمشون، وسحبت قوته...⁽⁴⁾.

إن هذه المعتقدات الشعبية، وخاصة تلك التي تعكس التواصل مع الطبيعة، أو مع قوى غيبية يخضع لها الإنسان في لحظة ضعف في الرؤية أو العقيدة في سعيه نحو تحقيق بعض غاياته، ترتبط باعتقاد الإنسان بالخرافات، والشعور بالعجز والحيرة والقلق والرجاء، وهذا له تأثيره على السلوك البشري في المواقف وظروف الحياة⁽⁵⁾.

وبعد هذا التطواف الشاق، علينا تحمل تبعات تسجيل التراث الشعبي في وطننا؛ ليحيا هذا التراث، لا في الكتب والدراسات وحسب، بل في كل عرس ومولد، وكل يوم وموسم، إن في هذا أهم مظاهر المقاومة وأبقاها وأفعلها، ولاشك في المدى البعيد.

(1) ... ربما كان الثعبان أنجس الحيوانات إطلاقاً في المعتقدات الشعبية؛ وذلك لأن إبليس تخفى في جلده ليدخل الجنة. ويعتقدون أن الحية لا تموت؛ لأنها تجدد جلدها في كل سنة، وهي خصم الإنسان وسبب موته؛ لأنها لم تشأ له الخلد على شاكلتها... والحية الجنية تمنع القرويين من ورود الماء، وقصد المراعي، وإذا التقى رجل بجنية، قال لها: سيرى يا مباركة؛ تجنباً لشرها. التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، ص 158.

(2) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 31، 32.

(3) انظر: أعجب الأساطير في التاريخ، عصام عبد الفتاح، ص 85 وما بعدها.

(4) رواية (جفاف الحلق)، غريب عسقلاني، ص 87.

(5) تحليل الخطاب الروائي (دراسات في الرواية الفلسطينية المعاصرة)، د. حماد أبو شاويش و د. سعد العزايزة، ص 169.

كلمة لا بد منها:

القيمة الفنية والأدبية لنتاج غريب عسقلاني القصصي

إن هذا المبحث ثمرة جهد تطبيقي متصل في قراءة نتاج عسقلاني القصصي، ومحاولة تذوقه جمالياً.

أ- القيمة الفنية:

إن من يطأ عتبة الدخول لنتاج عسقلاني القصصي، يقع في حالة من اللهاث الحميد، تواملاً مع القاص، الذي نزع إلى تقديم (الإمتاع والإفئاع)⁽¹⁾ من خلال قصصه إلى قارئه، ونذكر منذ البداية أننا أمام كاتب تجاوز تأتأة البدايات، وقطع أشواطاً في التفاعل مع أرق الكتابة، يحدوه هاجس التميز والإضافة، ووضع بصماته الخاصة في ملعب السرد القصصي، متكى على اطلاع كاف على تجارب الآخرين، وقابض على أدواته بثقة من خلال نصوص ممتدة، توفر مساحات للوصف والتأمل والتفاعل والتداعي واختبار الرغبات الإنسانية، والمتتبع لنصوص عسقلاني يدرك وعياً مسبقاً لدى الكاتب مع تقانات العمل القصصي بكل اقتدار، فمن حيث:

أ) اللغة:

وظفها توظيفاً موحياً ومعبراً من خلال الحقيقة والرمز، واستطاع أن ينزل بها إلى مستوى العامة والخاصة، بل يمكن القول أنه حاكي المجتمع الجمعي، ووظف الأغاني الشعبية لتكون شاهداً على ذلك التوظيف المثمر. ونجد لغته "منقاة لا يقل شأنها في قصصه عن الحدث والشخصية.. فهي تشكل عنده أحد عناصر البطولة"⁽²⁾، وهذا ما يلاحظ في قصته "الصبي

(1) الإمتاع: تقدمه القصة القصيرة من خلال رؤاها الجمالية المختلفة، ومن خلال نزوعها التوافق إلى التكامل مع الأجناس الأدبية الأخرى، فتتوصل بالشعر (أو الكلمة الشاعرة)، ونفيد من إمكانات التشخيص، والموسيقى، والسينما، والنحت، والتصوير... وغيرها.

الإفئاع: فهو مائل في محاولة القصة القصيرة الدائبة أن تتوجه إلى عصرها وإلى قارئها من خلال مناقشة هموم الواقع أو الاقتراب الحميم منها، وطرح آمال الإنسان العادي الصغيرة وإحباطاته المروعة أمام عينيه... انظر: مقدمة كتاب (جماليات القصة القصيرة) دراسات نصية، د. حسين علي محمد، الشركة العربية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1996م.

(2) في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل خالد أبو علي، ص 302.

والشمس الصغيرة" في قوله: "انبثقت في السماء شمس حمراء.. فسرت القشعريرة في بدنه.. وتساءل.. أهو الخشوع؟؟ لكن البرد جمّد أطرافه.. نظر إلى أسفل.. كان الوادي غارقاً في ظلمة حالكة.. والوقت في عز الظهيرة..."⁽¹⁾، وقصته "الدالية" في قوله: "يرتطم وجهه بأرضية السيارة.. يخز الألم في رأسه، لسعة نار تتمدد، ما بين اللحم والعظم أسفل ذقنه.. تبرق عيناه شرراً، تدور الدنيا به تتداخل الأبعاد، وتضيق المسافات.. وتختزل الدنيا في صندوق سيارة عسكرية، تطوي الأرض مجنونة، والسائق اللعين يتصيّد الحفر والمطبات..."⁽²⁾.

لقد اعتمدت لغته في بعض الروايات على العبارات المكثفة الموجزة والموحية، مبتعداً عن الإطالة والتفصيل، وهذا ما أكده أحد الباحثين بقوله: "اعتمد عسقلاني.. على لغة مكثفة... واستطاع صياغة الحدث النامي المشبع بالحوية والحركة بعيداً عن السرد الإنشائي المتكلف والتميز التقليدي الساذج"⁽³⁾، لننظر في هذه اللوحة الجميلة الجذابة: "... صوت الشباب لا يفارقه، وصابر بالقمباز الألاجة وحزامه الجلدي، وشبريته في جرابها الفضي المرصع بالخرزات الزرقاء. ينصب فخاخ الأرانب البرية، ويثبت القضبان المصمغة بالمخيطة وصمغ اللوز على شعب الأشجار، تستقبل الحساسين واللامبي والخضير ولا تدعها تفارق، ولا تغري الهداهد والقطا الباحثة عن الحبوب والديدان في ثنايا الأرض.. ويعود القطيع خلف الشبابة، والراعي يوزع عصافيره على الأطفال الذين ينتظرون، ويحتفظ بالحساسين لبديرة..."⁽⁴⁾، وكذلك هذه المناجاة العذبة الشجية: "هل تورّد فيك الامتلاء فيض شهوة غسلت أديم جلدك بالعرق؟

وهل تذوقت روائح وسادة من أثير؟

وهل تمرّغت على حشايا من ندى؟

فهل يا شمس، يأتينا القطار؟

(1) (الصبي والشمس الصغيرة) قصة، غريب عسقلاني، ص59. من مجموعة (الصبي والشمس الصغيرة)، وهي قصة رمزية تسقط أحداث غزو الجنوب اللبناني في السبعينيات، وتصدي المقاومة الفلسطينية لهم، واستغلال الأنظمة العربية للحالة الفلسطينية، وتوزيع الانتصارات الزائفة.

(2) (الدالية) قصة، غريب عسقلاني، ص92. من مجموعة (الصبي والشمس الصغيرة)، وهي رصد واقعي لاختطاف المناضلين من قبل قوات الاحتلال.

(3) تحليل الخطاب الروائي، د. حماد أبو شاويش، ود. سعد الغرايزة، ص165.

(4) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص84، 85.

وهل ما زلت تنتظرين فارسك النبيل؟ أم أخذتك القطارات

إلى غير مراعيك، جذبتك روائح الفتیان في قاع المدينة⁽¹⁾.

ولقد اكتست لغة الكاتب حلة بهية من الألوان كقوس قزح في مساء ربيعي، فقد اعتمد على اللغة الشعرية في بعض الأحيان للتوفيق بين جرح القلب وجرح الوطن، وهذه اللغة الشعرية "تقوم بدور بناء... إذ أحكم توظيفها، فهي تدخل القارئ في عالم الحلم المُتخيل، وتجعله مهياً لطقس القص، شريطة أن تسهم هذه الشعرية في بناء الحدث، وإثراء السرد، ورسم الشخصية. بمعنى: أن تكون لبنة في البناء القصصي يصعب انتزاعها منه، وإلا انهدم البناء من أساسه"⁽²⁾، ولنتأمل هذه اللوحة: "أنت الغائبة في البلاد البعيدة، تقطعين الوقت مثلي على خبز الجفاف، وتمارسين لعبة الناقة تجتاز رمال الربع الخالي بلا شحم سنام، تتزودين بالعطش حتى الثمالة. لم يا سيدتي غادرت المساحة. لم يا سيدتي ابتعدت إلى خارج مدار المسافة، والمسافة يا سيدتي هي أنت.

وأنت رأسك في شمال الأرض يتجلى مع ترانيم زيتون الجبل، قدماك مزروعتان في رمل صحراء النقب..."⁽³⁾.

وكذلك يقوم الكاتب بحرفه الجميل وإحساسه المرهف، فيراقص الحرف بلحن شجي، يعود إلى البوح، ومناجاة البعيد بأسلوب شعري: "وأخيراً يا زهرة، هل نلتقي، كيف وأين؟ في يافا في غزة، من منا يصعد، ومن منا يهبط؟ هل تهبطين من الكرمل فيما أنا صاعد إلى حيفا؟ هل يحط بنا الشوق في العجمي..؟ انتظري في شرفتك، واستقبلي ريح العصاري، حتى يمر النواتي فاردأ شاله، يتزرن بالغبانية الحلبية، سرواله الأسود وقيطانه الأصفر، ناشراً شراشيبه، تلمع أسفل الخصر في وهج الشمس، أنا على وصاياك يا زهرة لم أنس وصية..."⁽⁴⁾.

ويتابع الكاتب بوحه الشعري، فينتقل إلى الأسطورة، مترجلاً صهوة جوادها، حيث يحاكي الظل البعيد عبر توظيف الأسطورة عندما يستحضر العنقاء - الطائر الأسطوري - الذي

(1) رواية (أزمنة بيضاء)، غريب عسقلاني، ص 47.

(2) جماليات القصة القصيرة، د. حسين علي محمد، ص 95.

(3) ثلاثية شمس (متتالية روائية)، رواية (بيت في الأثير)، غريب عسقلاني، ص 302.

(4) نجمة النواتي (رواية)، غريب عسقلاني ص 93.

كلما مات يحترق ليولد من جديد⁽¹⁾، وهو يعود إلى التاريخ القديم برواية (سيزيف) الذي يحاول أن يحمل الصخرة إلى أعلى الجبل، وعندما يصل تتدحرج ثانية، ويكرر المحاولة على أمل النجاح⁽²⁾، هذه المحاولات التي يحاول توظيفها في عكس الحالة الفلسطينية، وما يرافقها من عبث ومأس وتضحيات، فلنقرأ هذا المقطع: "أنها العنقاء أنت.. وأنا المرجوم بالنزف سيزيف.. لن تضيعنا المنافي.. لن تضيعنا الطرقات بين ربيع وخريف.."

ربما جننا من الأسطورة طيفاً.. لكننا يا صاحبتى انطلقنا من رحم الحقيقة.. والحقيقة؛ أنت الأميرة...⁽³⁾. ويقول د. نبيل أبو علي في توظيف الأسطورة في أدب عسقلاني: "في قصص غريب عسقلاني فغالباً ما نراها قد خرجت عن دلالتها التي ينبغي أن تستمد من مرجعيتها التاريخية أو التراثية، حيث تتشكل بتجربة القاص ورؤيته الخاصة، الأمر الذي يصعب معه اعتمادها كأسطورة لها دلالة محددة، ... وهذا الامتطاء المشروع للتراث الأسطوري يجعل النظر للأشياء محصوراً في الزاوية التي اختارها القاص.."⁽⁴⁾.

ومن الملاحظ على نتاج عسقلاني اهتمامه باللغة، فهو يكتب وفي ذهنه صورة لأسلوب الأديب البارع، يحاول أن يطبقها في أسلوبه، ومن ملامح هذا الأسلوب حشد أكبر قدر من النعوت، يقول في قصته "جلد الوجه": "... صوت أبيض مر بي.. الرجال والنساء بيض، والأسرة والفراش والجدران بيضاء.. احتوتني شفافية بيضاء... .. ابتسامته البيضاء تستدرجني"⁽⁵⁾.

(1) تقول الأساطير القديمة أن العنقاء عندما تقترب ساعة موته يعمد إلى إقامة عشه من أغصان أشجار التوابل، ومن ثم يضرم في العش النار التي يحترق هو في لهيبها... وبعد مرور ثلاثة أيام على عملية الانتحار تلك ينهض من بين الرماد طائر عنقاء جديد... للمزيد، انظر: أعجب الأساطير في التاريخ، عصام عبد الفتاح، مكتبة جزيرة الورد، ط1، القاهرة، 2011، ص150.

(2) سيزيف أو سيسفوس كان أحد أكثر الشخصيات مكرماً بحسب الميثولوجيا الإغريقية، حيث استطاع أن يخدع إله الموت تانتوس وتكبيله، مما أغضب كبير الآلهة زيوس، فعاقبه بأن يحمل صخرة من أسفل الجبل إلى أعلاه، فإذا وصل إلى القمة تدحرجت إلى الوادي فيعود إلى رفعها إلى القمة.. ويظل هكذا حتى الأبد.. للمزيد، انظر: السابق، ص 37 وما بعدها.

(3) يوميات الحرب والموت (سيرة روائية)، غريب عسقلاني، ص 151.

(4) في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل خالد أبو علي، ص 303.

(5) عزف على وتر حزين (قصص قصيرة)، قصة (جلد الوجه)، غريب عسقلاني، ص 95. وتتعرض قصة (جلد الوجه) إلى بعض الممارسات غير الطبيعية في مفهوم القناع والزي الإسلامي.

وتبدو اللغة هم عسقلاني الأول، يقول عادل الأسطة: "تبدو اللغة هم غريب عسقلاني الأول، لدرجة يود من خلالها تثوير الواقع عبر تثوير اللغة، وإضفاء جو موسيقي على العبارة اللغوية، ليأسر بذلك القارئ..."⁽¹⁾.

وفي بعض الروايات وردت مفردات مبهمة غامضة، وبالتحديد في رواية (نجمة النواتي)⁽²⁾، مما جعل بعض الكتاب يتساءل: "هل يستطيع القارئ العربي أن يقف على مدلولات وإيحاءات هذه المفردات، أو اكتشاف أبعادها بنفسه؟"⁽³⁾.

ولقد استفاد كاتبنا بالتكنيك السينمائي في عدد من رواياته، وبالتحديد في رواية (جفاف الحلق)، فكانت عين الراوي في الرواية مثل عدسة الكاميرا التي تتحرك في كل جانب، وعلى أكثر من محور؛ لأن في نظره أن يحمل حكاية أو مأساة الفلسطيني التي أصبحت متكررة ومعروفة، بعد أن تعايش معها العالم كله منذ زمن كأزمة لم تحل، ولا يبدو لها حلاً، مثلها مثل مشكلة الزوج في أمريكا، والأكراد في الدول التي قُسموا فيها.

بقيت نقطة هامة، تحتمل كثيراً من الجدل والمناقشة، وهي اللغة العامية، واستعمالها في القصة أو الرواية، "ولا تدخل العامية في الأسلوب القصصي، إلا في المواقف الحوارية. فالكاتب الذي يلجأ إلى طريقة السرد المباشر... لا يحتاج إلى أن يُحدّث بلغة عامية... ولكن أكثر الكتاب يلجأون إليها في الحوار، لتُضفي عليه صدقاً وحيوية وواقعية"⁽⁴⁾، وأدينا من هؤلاء الذين يلجأون إلى العامية في الحوار؛ لأن طبيعة رسم الشخصية في القصة تتطلب ذلك وتعتمد عليه اعتماداً كبيراً، من ذلك هذا الحوار بين رجل وزوجته: "... وين الجلابيب؟

- مفسونة ومطوية في الخزانة

- احرقها

- ليش يا زلمة؟ خليها يمكن يبجي دورها

- زمانها راح يا وليّة..

(1) القصة القصيرة في الضفة الغربية وقطاع غزة، عادل الأسطة، ص 141.

(2) المفردات: بيارة الباشا، دورية الدوليين، الهنود، الدليل، رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 40.

(3) دراسات في الأدب الفلسطيني، مجموعة من الباحثين، جامعة القدس المفتوحة، ص 269.

(4) فن القصة، د. محمد يوسف نجم، دار صادر، ط1، بيروت، دار الشرق، عمان، 1996م، ص 99.

- نعطيهها لصاحب النصيب!؟

- قلت حظي عليها كاز واحرقها

...

- ياما نشوف، صار يطلع بحال يرجع لنا بحال، تقول حاطط رجل في المية ورجل في النار..
عين طرفته يا لطيف...!!⁽¹⁾.

(ب) الأسلوب:

إن أسلوب القصة هو الطريقة التي يستطيع بها الكاتب أن يصطنع الوسائل التي بين يديه، لتحقيق أهدافه الفنية. والوسائل التي يمتلكها الكاتب هي الشخصيات والحوادث والبيئة...⁽²⁾، ولقد عمد عسقلاني إلى أسلوب السهل الممتنع في كتابته الأدبية من خلال تطويع اللغة، ولابد من الإشارة إلى أن لغة عسقلاني ذات نكهة، تمثلت بالمقاطع العديدة التي اتبع فيها أسلوب الوعي والتذكر والربط بين الماضي والحاضر، ويعود الكاتب إلى ألق الماضي وجماله، بمفردات تتناسب وحالة السرد التي يتبعها بما يتناسب مع المشاهد المتتالية، وهنا أراه قد مال إلى استخدام قصة السيد المسيح وحكايته من خلال الرمز: "... وأنا المشبوح على صليب عذاباتي.. تبكيني النساء عند بوابات القدس العتيقة.. لن يخادعنا الليل.. قومي وانهضي من رمادك.."⁽³⁾، وهذا الأسلوب "قيمة فنية تعيد للفظ مكانته وحيويته، وتخلق منه عنصراً فعالاً يثري الصورة التي تحتضنه"⁽⁴⁾، كما استعان الكاتب بالأمثال الشعبية ليوضح فكرة أو موضوعاً، وهذا ما سلف ذكره⁽⁵⁾.

لقد وظف غريب عسقلاني المونولوج الداخلي توظيفاً واعياً، ونلاحظ ذلك في قصته "الصبي والشمس الصغيرة"، "وقف على رأس الجبل، بهره الأفق المترامي، ... حدث نفسه أهو الوداع؟؟ وهدهد قلبه الصغير في صدره... هدأت دقات القلب وتطلّع إلى السماء... مرت غيمة حبلى فوق رأسه، فاستبشر... مد يده وحدث نفسه... لو احتضن الغيمة...؟ لكن الغيمة فرت

(1) زمن دحموس الأغبر (رواية)، غريب عسقلاني، ص 15، 16.

(2) انظر: فن القصة، د. محمد يوسف نجم، ص 93 وما بعدها.

(3) يوميات الحرب والموت، سيرة روائية، غريب عسقلاني، ص 151.

(4) مجلة جامعة عبد العزيز: العلوم التربوية، مجلد 11، جدة، 1998م، ص 449.

(5) انظر: الفصل الثالث (الأرض والتقاليد الفلسطينية)، ص 100 وما بعدها.

بعيداً عنه، فانتفض صدره، وركبه هم ثقيل... وأخذ يهدد قلبه الصغير ويناجي ربه الله...⁽¹⁾.

وبهذا يُظهر غريب عسقلاني ولعاً خاصاً بالمونولوج، والاقتراب أحياناً من حالة الحلم، حيث يحمل المشهد اللامعقول أفكاراً معقولة، ومع ذلك فإن مثل هذه القصص التي قد توهم البعض بأنها قصص رمزية سنجد أنها لا تنفصل عن الواقع، بل إن سبب هذا الخلط هو تشابك اللغة بكثافتها الرمزية مع الحدث بإيحاءاته ودلالاته⁽²⁾.

وفي نصوص قصيرة، يبدو ولع الكاتب وتمكّنه من اختزال زوائد القص وتربّله والذهاب إلى نحو ما يريد في اختيار زاوية التقاط الحدث، أو لحظة التوتر النفسي، أو الهروب إلى الحلم وتيار الوعي، يساعده على ذلك لغة شاعرة محملة بالشفيرات، يقول زكي العيلة: "لعل أبلغ ما يتصف به غريب عسقلاني... تلك القدرة على التقاط اللحظة الإنسانية، واستقطار أدق ملامحها. الحلم واليقظة، الزمان والمكان، العام والخاص، المرئيات والمخبوءات، كلها صور تتداخل، تمتزج، تتعجن لتشكل تضاريس النص وذاكرته"⁽³⁾، وهذه لوحة بين الحقيقة والغفوة "... يتمدد على السرير، يلف صدره بالملاءة اتقاء لبرد نهارات الكوائين، يقبض على الجديلة بين أصابعه، ويمشطها يفرد الشعر على طوله.. يسري الدفء في كيانه، ويحاور ثلاث شعيرات بيضاء، يصله خبط الريح الثلجية على بلاطات القرميد المائلة على خشب السقف، وزهرة على الجدار تبتسم، عينان لوزيتان، محيرتان، وجديلتان لامعتان تتدليان، وعقد يسور العنق الطويل، يرتاح على بلاط الصدر، تداهمه الغفوة..."⁽⁴⁾.

ويتصل بالأسلوب ميله إلى استخدام الاستعارة البسيطة المعبرة، التي رغم واقعيّتها تكشف عن الجو النفسي، وتسهم في إثرائه، "الرؤوس تطل من الأبواب، والعتمة جاثمة على صدور الزقاق.. والليل غول ابتلع الرجال.. والبحر هدير وحشي يمتطي رياح تشرين..."⁽⁵⁾.

(1) الصبي والشمس الصغيرة (قصص قصيرة)، غريب عسقلاني، ص 59.

(2) في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل خالد أبو علي، ص 303.

(3) في ضفاف السرد (دراسات)، زكي العيلة، ص 41.

(4) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 64.

(5) رواية (الطوق)، غريب عسقلاني، ص 21. وانظر: ص 23، 31، 37، 38، 40.

ج) أما شخصياته:

فجاءت كارزمية إلى حد ما، مؤثرة في الأحداث، تحرك الفعل وتتفاعل مع الأزمات في دقة، كما أن لديها قدرة على التنامي في السياق العام لهذه الرواية أو تلك، فلننظر مثلاً لشخصية النواتي وزهرة في رواية (نجمة النواتي)، فالنواتي سليل عائلة الصيادين، وحراس البحر في يافا، فارس المرفأ، فتى العجمي، الذي يعطي ولا يأخذ، مثل وليفه البحر، يقبل على الحياة، يفيض عنفوانه، وتتضح رجولته، وحكمة أسرته، إنه ابن الموانئ يحفظ حكاياتها، وزهرة فهي ابنة العجمي التي تنتظره على شرفتها. ومن هذه الشخصيات أيضاً شخصية منصور اللداوي في رواية (عودة منصور اللداوي).

ينتمي نتاج عسقلاني القصصي إلى ما يمكن أن نسميه (الواقعية التصويرية)⁽¹⁾، (واقعية) تتطلق من واقعه المعيش في مخيمات اللاجئين، حيث تنتسب معظم شخصيات أبطاله إلى هذه المخيمات، كاشفاً خصائص هذه المخيمات، وآمال ناسها ومعاناتهم وشقائهم، وهذه الواقعية (تصويرية) لأن صاحبها يضع بين نصه وواقعه مسافة ما، فيحوّل هذا الواقع بزخمه وحيويته وناسه إلى واقع تصويري، يتوسل بالفن ويقدم رؤيته من خلالها، ومن الأدوات الفنية التي يستخدمها في واقعته التصويرية:

التجسيم:

غريب عسقلاني يعي إنجازات الفن الحديث في التصور والنحت، فنراه ينحت شخصياته في وجدان المتلقي، حتى ليقم فيه نفسه تمثلاً لهذه الشخصية أو تلك، ففي رواية (أولاد مزيونة) يصف الراوي (زانة) ابنة مزيونة: "البنت هي أمها، ناقة حليبية على احمرار دونما نمش، وخال أخذته من أبيها يسكن سرّة الذقن، وشم رباني ملاوع فيه الغضب مع الفرخ، وعينان برموش مثل مظلة من ندى، صامته ليس على خجل... وتعلق ابتسامه محايدة على فمها..."⁽²⁾، يصف الراوي هنا وكأنه يقيم تمثلاً لكائن من كوكب آخر.

د) أما أماكنه:

مشهورة تصور الواقع، ولا تتفك عنه، نشعرنا بقداسة الأمكنة وعلاقتها المباشرة مع الشخصيات، ويستخدم الكاتب تكتيكات المذكرات من بوح وعشق للمكان في أعماله الفنية بدرجة

(1) انظر: جماليات القصة القصيرة، د. حسين علي محمد، ص 47.

(2) رواية (أولاد مزيونة)، غريب عسقلاني، ص 78.

من الجودة والجمال، حيث يصير المكان جزءاً من نسج اللوحة، وبنيتها الدالة، ففي رواية (نجمة النواتي)، نرى بعض ملامح هذا العشق "حدثني عن بحر حيفا حيث كانوا يقضون الصيف عند خالهم، واسترجع بقايا ذاكرة طفلة عن الكرمل، وقرية إجزم وعن مواسم الصيد والزيتون"⁽¹⁾، وكذلك الأمر في الزمان: إنه يحاول حفر الذاكرة بتلك الأيام الصعبة ومراحل الصراع غير البعيد عنا، والزمان عنده يعتريه التنوع، منه الحقيقي، ومنه المجازي، ومنه الرجعي (يحاكي الواقع من النهاية إلى البداية)، ويجسد الزمان ذكريات وأيام لا تُنسى: زمن الحب وزمن القهر، زمن الأزمان وزمن الأفراح، و "لقد تأثر الزمن بفن السينما، حيث بدت مقدرته [غريب عسقلاني] على اجتياز زمن القص، واللجوء إلى التنقل من زاوية لأخرى عبر أزمان قد تكون متقاطعة أو ممتدة بين الماضي والحاضر، لالتقاط جزئيات معينة تساعد في تكامل المشهد العام المراد توصيله..."⁽²⁾.

في النهاية يمكن القول أن الأوجاع والآمال والحكايات التي صاغها عسقلاني بشخصه واسمه، تدل على إلحاحه على قضية اللجوء والبحر والصبر والعدو، وتلك المكونات عاشها الشعب الفلسطيني وما يزال، وانصب معظم إنتاجه عليها، ليؤكد لنا تلك القيم التي انطلق منها، بل وأثر بها على المتلقين فيما قدم من إبداعات تبرزه كأديب.

ب- القيمة الأدبية:

غريب عسقلاني قصصي وروائي، من المساهمين في الحياة الأدبية الفلسطينية تحت الاحتلال، له تاريخ طويل في الإبداع النثري والمتنوع، نُشر الكثير من أعماله الإبداعية في صحف ومجلات الوطن، وعبر المواقع الإلكترونية، ما يميزه عن غيره من قصاصي وروائيي الضفة والقطاع تلك العفوية في التعابير واختيار الألفاظ، واعتماد أسلوب التشويق، والالتزام الفكري بالجانب الوطني، والاهتمام بالفقراء البسطاء، وانتقاء الأبطال أصحاب الوعي السياسي والاجتماعي والنضالي، يقول غريب عسقلاني في حوار أجري معه: "وجد الفتى [عسقلاني] ملاذه في القصة القصيرة، يدبجها، ويحتفظ بها، ولا يجرؤ على نشرها، ثم أخذته الجرأة ونشر في الصحف والمجلات الفلسطينية، فوجد مَنْ يشجعه، ويأخذ بيده لتبدأ الرحلة... ويطرح أول مجموعاته القصصية "الخروج عن الصمت" التي تبنتها دار البيادر في القدس 1979، ثم تليها في نفس العام روايته الأولى "الطوق" عن دار الكاتب في رام الله... إن الكتابة الحقيقية لا تكون

(1) رواية (نجمة النواتي)، غريب عسقلاني، ص 75.

(2) في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل خالد أبو علي، ص 303.

إلا مع الصدق، ولا يكون الصدق خارج الانتماء، ولأنني كنت وما زلت المشغول بقضيتي وهويتي، فإن مقياس النجاح والفشل عندي ما زال يتحدد في ما قدمت وما عليّ أن أقدم⁽¹⁾.

وُلد عسقلاني ونشأ في حزن الفقر، وشهد التحولات السياسية والفكرية والاجتماعية، وعاش الانتفاضة وعاشها بكل خلجة شعورية، وصورها في كتاباته وأعماله، وكتب ملحمة الصمود والنضال الاستقلالي الفلسطيني، كما وساهم في صياغة وبلورة كتابة روائية خالقة تعالج مختلف الموضوعات والهموم الشعبية، وتقف ضد الظلم والقهر السياسي والاجتماعي.

وقد تفاعلت البيئة الأدبية في فلسطين مع إبداعاته، وشارك في عدد من الندوات، في: صالون نون الأدبي في مؤتمر صحفي في جامعة الأقصى، وأيضاً في ملتقى الصداقة الأدبي.

ويُعد عسقلاني من أوائل الذين كتبوا في القصة القصيرة، ثم انتقل إلى الرواية، وهو ظاهرة أدبية فلسطينية... شكّل بقلمه نموذجاً حديثاً روائياً، مزج بين الأدب والسياسة، وزواج فنون الكتابة بعضها مع بعض، كثير من نصوصه تحتوي على أكثر من لون أدبي... فيه الشعر والقصة والرواية... استطاع أن يطوِّع اللغة، ويزاوج بين ألوان الأدب، ليربطها جميعاً بمعاناته...⁽²⁾.

ويؤمن عسقلاني بأن الفن للحياة وللناس وللحقيقة، وهو كاتب يتمتع بسماته المميزة من حيث التكنيك والمضمون القصصي، وجاءت أعماله الفنية مرآة للحياة الواقعية والمجتمع. ولد عسقلاني في ظرف تاريخي من أحلك ظروف الأمة العربية، هذه الظروف التي عاشتها فلسطين في مواجهة الهجمة الصهيونية الشرسة للاستيلاء على فلسطين، وتحويلها إلى وطن قومي لليهود، وطردها أهلها إلى المنافي، وإزالة ملامح الشخصية الفلسطينية لدى من تبقى في أرض فلسطين و"بدأ غريب الكتابة في السبعينات، متأثراً بأجواء هزيمة 1967، التي شكّلت مُعطفاً حاداً ومؤلماً على الوجدان والفكر العربيين، ويلاحظ... انحيازه لفقراء الناس في المخيمات والأحياء الشعبية، يرصد حياتهم، ويربط معاناتهم بهموم اللجوء... وحلمهم الدائم في العودة. وهذا ما جعل مشروعه الروائي قائماً على مواكبة حياة هؤلاء اللاجئين..."⁽³⁾، وبالتالي يستند غريب عسقلاني في قصصه ورواياته إلى الروح الشعبية، ويرسم الواقع المعاش بشكل فني

(1) ربما قاسم تحاور القاص الروائي الفلسطيني غريب عسقلاني. <http://sh-aladab.com>

(2) غريب عسقلاني بين غربة الروح. www.maannnews.net/arb/viewDetails.aspx?ID=422541

(3) دراسات في الأدب الفلسطيني، جامعة القدس المفتوحة، ص 256.

متطور، ويقول بأنه يكتب لـ: "الناس العاديين في الشارع الفلسطيني، الفقراء والمناضلين وسكان المخيمات..."⁽¹⁾.

ومنذ عام 1920، وهو عام فاتحة الدم، نشأ في فلسطين ما أطلق عليه أدب المقاومة، وهو كما وُصف... أدب المقاتلين أنفسهم، وأنه الكتابة السرية التي تنتشر بين الناس، دون أن يعرفوا بالضرورة مَنْ كتبها⁽²⁾، وعسقلاني بأعماله امتداد لهذا النوع من الأدب، حيث أجاب في رد على سؤال "لماذا آثرت النشر باسم غير اسمك الصريح؟ فكانت إجابته: ولد غريب عسقلاني [الأديب] في السبعينات، عندما كنا نتلمس في الكتابة وسيلة نضالية إلى جانب الكفاح المسلح، في مواجهة العدو المحتل، وانبثق غريب عسقلاني اسماً أدبياً سرياً، من خاصرة إبراهيم الزنط، ليكتب على صفحات المجلات والجرائد، ولكن سرعان ما اكتشفوه، ودُفع بصاحبه إلى السجن، حيث أخذت المواجهة طابعاً علنياً، وأصبح غريب عسقلاني هو العنوان حتى يعود الغريب إلى مسقط رأسه"⁽³⁾، ويحاول عسقلاني مع عدد من الأدباء الفلسطينيين تأسيس ثقافة مقاومة جديدة في ظل الظروف القاسية، والتحديات الكبيرة في زمن الحروب، وزمن الاحتلال الذي يغتصب الأرض وما عليها⁽⁴⁾.

إن فن القص لدى عسقلاني ينطلق من بيئة بسيطة ليقدم مضامين إنسانية، ويعالج شخصيات بسيطة بهمومها وأحلامها في أسلوب ومقدرة عميقة على الإحاطة بشخوص هذا العالم القصصي الثري، وتتشابه معظم القصص في غاياتها هذه، لقد أثر القاص أن يعبر عن هموم جماعة بشرية هي اللاجئين، ولعل أكثر ما يطمح فيه من طرح رؤياه هذه، أن يشاركه قارئه الحلم في إيجاد نسق قيمي جديد، فينتصر لأحلام هذا اللاجئ، في حمى فقدان والظلم والعوز وصعوبة العيش، تقول في ذلك مي نايف: "لقد تعامل غريب مع هذا الفن [القص] بذكاء في التقاط حالات من الواقع الذي نحياه، حيث أعاد تشكيله عبر منجز قصصي مُحكم البنية في فن القصة القصيرة...، واستطاعت أن تحمل قصصه معظم شروط فن القصة، وبذلك جاءت... بجماليات إبداعية شديدة الخصوبة والجمال، تكشف عن موهبته القصصية، وقدرته على خلق فن قصصي راق، يخلق فينا نوعاً من اللذة المؤلمة أو الألم اللذيذ..."⁽⁵⁾، أما د. عاطف أبو حمادة، فله رأي آخر إذا اعتبر فيه أن الكاتب [عسقلاني] لم يتخلص من النفس الروائي في بنية القصة

(1) حوار مع الأديب غريب عسقلاني. <http://www.alhewar.org>

(2) انظر: مجنون التراب، شاعر النابلسي، ص 143.

(3) غريب عسقلاني - حوار مع صبيحة شير. <http://www.alnoor.se/article.asp?id=29166>.

(4) انظر تحليل الخطاب الروائي، د. حماد أبو شاويش، ود. سعد العزايزة، ص 142.

(5) سمات القصة القصيرة عند غريب عسقلاني. <http://fis2020.maktoobblog.com>

القصيرة، واعتمد على عنصر المفاجأة، واعتبر أن الكاتب يعتمد في قصصه على المفارقات اللغوية⁽¹⁾.

أما كاتبنا فله وجهة نظر في القصة القصيرة، حيث يرى أن "القصة إذا تنازلت عن الحكاية أو الحدث لن تُعد تغريه، فنحن أمام تجريب، وأنا جربت الكتابة عن التغريب عن الوطن، وعن مسقط رأسي عسقلان في ثنائيتي مع الكاتبة العراقية المُعَرَّبَة قسراً عن الوطن، في حالة تُشبه حالتي الفلسطينية، مما يخلق وحيّاً يغريني بكتابة المزيد من مقامات غربتي الخاصة في حالة عامة"⁽²⁾.

ويضيف عسقلاني في رد على سؤال عن أقرب الأجناس الأدبية إليه، قال: "أحبّ الأجناس إليّ القصة والرواية، فالقصة القصيرة تشاغلني مع اللحظة بتجلياتها ومعاناتها، وتوفر مساحة رحبة للتجريب والمغامرة الإبداعية يُرضي جنوني وهوسي.. أما الرواية فهي الحياة بكل تشابكاتها، وهي الأسئلة التي تتناسل عن أسئلة تغريني بالاشتباك والتفاعل"⁽³⁾.

أما بعد،

غريب عسقلاني الذي اجتث من عسقلان قسراً، والمعقل خلف قضبان الوجد، يأبى إلا أن يبقى نورساً يعشق الترحال؛ لأن الترحال هو الزاد الذي يفتات به. هو الغريب عاش غريباً عن بلده التي طُرد منها، لكنه يأبى إلا أن يكون على موعد مع الترحال، وتبقى حروفه المُبحرة في حير الانتظار مع أمل لشروق آخر، شروق باسم، يحمل له بشرى سارة، تلغي الحواجز، ويعود حُرّاً طليفاً.

(1) سمات القصة القصيرة عند غريب عسقلاني. <http://fis2020.maktoobbblog.com>.

(2) السابق.

(3) <http://www.alnoor.se/article.asp?id=29166>

الخاتمة

الخاتمة

إلى هنا انتهى البحث الذي امتد عبر ثلاثة فصول سابقة، وقد هدفت الدراسة إلى تناول الأرض في أدب غريب عسقلاني القصص، من خلال منهج تكاملي، يقوم على دراسة المجموعات القصصية، إضافة إلى الروايات واستكناه مضامينها، وما تحلق حولها من دلالات متعددة الأبعاد.

ولما كانت هذه الخاتمة تدعوني إلى حصر أهم نتائج البحث، أجد لزاماً أن أعرضها على هذه النحو:

- 1- يكشف نتاج عسقلاني القصصي عن كاتب ذي طابع إنساني، يتعاطف تعاطفاً حانياً مع البسطاء والتعساء (اللاجئون) خاصة، الذين قست عليهم ظروف الحياة بسبب المحتل، فحرمتهم سعادة القلب دون أي ذنب.
- 2- شكّلت قضية الوطن داخل أعماله قضية رومانسية، ولم تقتصر على الحنين للماضي، بقدر ما كانت مسألة هوية ووجود عمّدتها التجارب الدموية الصارخة منذ (دير ياسين) و (كفر قاسم) مروراً بـ (صبرا وشاتيلا) وصولاً إلى تكسير عظام الصبيّة والشبان إبان سنوات الانتفاضة.
- 3- لا يوجد في نتاجه ما يوحي بنوع من التساهل أو التنازل للمغتصبين، أو يعرض نوعاً من الحلول الوسط، باستثناء قصة (وردة بيضاء من أجل ديفيد) في المجموعة القصصية (الصبي والشمس الصغيرة) التي تعرض لإمكانية العيش السلمي مع الأعداء.
- 4- عدم تركيزه على الصراعات الداخلية، إنما وظّفه في إطار الصراع العام بين المواطن ومحتلي بلاده، كما هو الحال في السيرة الروائية (يوميات الحرب والموت - غزة تحترق).
- 5- عدم انشغاله بالقضايا الذاتية، والتركيز والاهتمام بقضية الوطن هو الأساس، وبالتحديد ما يتعلق باللاجئين والمخيمات، حتى أطلق عليه كاتب المخيم.
- 6- تأصيل علاقة المرأة بالمكان، إما تجذر بالأرض، أو استعادة جوانب من الماضي والحنين للمكان.
- 7- التعبير الرمزي عن التجذر بالأرض والتمسك بالوطن هو الغالب على الدلالات الأخرى، مما يؤكد سيطرة هذه الدلالات في ذهن الكاتب على سواها، كما يؤكد صدق الكاتب في التعبير عن قضية وطنه ومعاناة شعبه، وقد اتسم التعبير الرمزي المستخدم ببعده عن الغموض.

8- بين السيرة الذاتية والرواية يتقلّ الكاتب بين التاريخ والأرض في سيرته التاريخية والدلالية، وكثير من أبطاله (غريب عسقلاني) دليل على أنه يمثل بلده، ومن تاريخ شقائه يرتد إلى أرضه.

9- مزج بين الأدب والسياسة، وزواج فنون الكتابة ببعضها مع بعض، تحتوي نصوصه على أكثر من لون أدبي، تناول فيه الشعر، والقصة والرواية، وزواج بين ألوان الأدب ليربطها جميعاً بمعاناته دون أن يوحي للقارئ بأن هذا النص العاشق أو ذلك في باطنه حكاية شعب مظلوم.

10- تبدو اللغة هم عسقلاني الأول، ويُضفي جواً موسيقياً على العبارة اللغوية ليأسر بذلك القارئ.

11- في الحقيقة أن تجربة عسقلاني اللغوية تحتاج إلى دراسة أخرى، ففي نتاجه القصصي إنجاز لغوي حقيقي لا ينفصل عن إنجازه الفني الذي حاولت أن أقاربه في هذا البحث.

12- هناك العديد من النصوص عند غريب عسقلاني تنتظر الدراسة الجادة والأكثر عمقاً أو المكملة لدراستي هذه، فيها إجابات لكثير من الأسئلة التي تدور في أذهاننا، ومنها: هل سيبقى غريب غريباً؟

13- يبقى نتاج عسقلاني مفتوحاً لكل الباحثين لاستنطاقه ودراسة جمالياته وطاقاته الفنية الشمولية والجزئية، وهذه الدراسة لا تدعي أنها قالت الكلمة الأخيرة في أعمال عسقلاني، بل إنها البداية على طريق النقد والتحليل بالنسبة لأعماله.

وأعتقد أن ما قمت به في هذا البحث هو عبارة عن وضع المفاتيح لدراسة أعمال عسقلاني ، ذلك أن البحث الراهن كان مهموماً ببحث جزء متواضع بالدراسة التحليلية ، وتبقى العديد من القضايا القابلة للدراسة بشكل أكثر عمقاً، مثل:

1- اللغة في أعماله.

2- تقانات السرد وغيرها.

وما توفيقني وثقتي واعتصامي إلا بالله جل وعلا، عليه توكلت ، وإليه أنيب ، وصلّ اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المجموعات القصصية:

- 1- حكايات عن براعم الأيام (رسائل الأطفال الرجال إلى براعم الورد)، غريب عسقلاني، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ط1، القدس، 1991م.
- 2- الخروج عن الصمت (قصص قصيرة)، غريب عسقلاني، البيادر، القدس، 1979م.
- 3- الصبي والشمس الصغيرة (مجموعة قصصية)، غريب عسقلاني، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ط1، القدس، 1992م.
- 4- عزف على وتر حزين (قصص قصيرة)، غريب عسقلاني، منشورات دار الماجد، ط1، رام الله، 2005م.
- 5- غزالة الموج (قصص قصيرة)، غريب عسقلاني، المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي، ط1، رام الله، 2003م.
- 6- النورس يتجه شمالاً (قصص قصيرة)، غريب عسقلاني، وزارة الثقافة الفلسطينية، ط1، 1996م.

الروايات:

- 1- ثلاثية شمس (متوالية روائية)، غريب عسقلاني، الدار للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2008م.
- 2- رواية الطوق، غريب عسقلاني، دار الكاتب، القدس، 1979م.
- 3- رواية أولاد مزيونة، غريب عسقلاني، شمس للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2009م.
- 4- رواية جفاف الحلق، غريب عسقلاني، منشورات المركز الثقافي الفلسطيني، ط1، رام الله، 2000م.
- 5- رواية زمن الانتباه، غريب عسقلاني، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ط1، غزة، 1983م.
- 6- رواية زمن دحموس الأغبر، غريب عسقلاني، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ط1، فلسطين، 2001م.

- 7-رواية عودة منصور اللداوي، غريب عسقلاني، منشورات دار الزهرة، ط1، فلسطين، 2002م.
- 8-رواية ليالي الأشهر القمرية، غريب عسقلاني، منشورات مركز أوغاريت الثقافي، ط1، رام الله، فلسطين، 2002م.
- 9-رواية نجمة النواتي، غريب عسقلاني، منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، 1999م.
- 10- يوميات الحرب والموت..غزة تحترق (سيرة روائية)، غريب عسقلاني، سندباد للنشر والإعلام، ط1، القاهرة، 2010م.

الدواوين الشعرية:

- 1- الأعمال الشعرية الكاملة، محمد عز الدين المناصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994م.
- 2- الأعمال الشعرية الكاملة، معين بسيسو، دار العودة، ط3، بيروت، 1987م.
- 3- الأعمال الكاملة، عبد الرحيم محمود، تحقيق: محمد عز الدين المناصرة، دار جرير، ط1، عمان، 2009م.
- 4- ديوان أبي سلمى (عبد الكريم الكرمي)، دار العودة، بيروت، 1989م.
- 5- ديوان أحمد دحبور، دار العودة، بيروت، 1983م.
- 6- ديوان راشد حسين، دار العودة، بيروت، 1987م.
- 7- ديوان رجا سمرين، الكويت، ط1، 1985م.
- 8- ديوان سميح القاسم، دار الهدى، ط1، القدس، 1991م.
- 9- ديوان محمود درويش، دار العودة، ط14، بيروت، 1996م.

المراجع:

- 1- الإبل في التراث الشعبي الفلسطيني، سليم عرفات المبيض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.

- 2- اتجاهات القصة القصيرة في فلسطين، د. نبيل خالد أبو علي، مكتبة دار الأرقم، ط1، غزة، 2007م.
- 3- الأدب العربي المعاصر في فلسطين من سنة (1860 - 1960)، د. كامل السوافيري، دار المعارف، القاهرة، 1977م.
- 4- الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني، د. نبيل خالد أبو علي، دار المقداد، ط1، غزة، 2008م.
- 5- أدب المقاومة في فلسطين المحتلة (1948 - 1966)، غسان كنفاني، دار الآداب، بيروت، 1969م.
- 6- الأدب وقضية فلسطين، محمد مهدي علام، مطبعة العاني، بغداد، 1965م.
- 7- الأدب ومذاهبه، أحمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة، 1974م.
- 8- الأرض المباركة، عدنان النحوي، المكتب الإسلامي، ط2، بيروت، 1981م.
- 9- الأرض والغربة والتحدي في شعر سليمان دغش، د. إبراهيم عياد، فلسطين، 2004م.
- 10- الاستعمار الصهيوني في فلسطين، فايز الصايغ، السكرتارية الدائمة لمنظمة تضامن الشعوب الإفريقية والآسيوية، (د.ط)، القاهرة، (د.ت).
- 11- أعجب الأساطير في التاريخ، عصام عبد الفتاح، مكتبة جزيرة الورد، ط1، القاهرة، 2011م.
- 12- الانتفاضة الفلسطينية الكبرى، أسعد عبد الرحمن ونواف الزرو، عمان، 2001م.
- 13- الانتفاضة الفلسطينية الكبرى، عبد الهادي النشاش، دار الينابيع، (د.ط)، دمشق، 1994م.
- 14- الانتفاضة والدولة الفلسطينية، لطفي الخولي، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط1، القاهرة، 1988م.
- 15- تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، دار الفكر، ط2، بيروت، 1988م.
- 16- تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، 1991م.
- 17- تاريخ الحملة إلى القدس، نوشيه الشارترى، ترجمة: زياد جميل العسلي، الشروق، ط1، عمان، 1990م.

- 18- تاريخ الدولة العثمانية، زين العابدين شمس الدين نجم، دار المسيرة، ط1، عمان، 2010م.
- 19- تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية، عيسى الحسن الأهلية، ط1، عمان، 2008م.
- 20- تاريخ فلسطين الحديث والمعاصر، رفيق شاعر النتشة وآخرون، المؤسسة العربية، ط1، بيروت، 1991م.
- 21- تاريخ فلسطين الحديث، عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط10، بيروت، 1990م.
- 22- تاريخ فلسطين القديم، ظفر الإسلام خان، دار النفائس، ط3، بيروت، 1981م.
- 23- تحليل الخطاب الروائي (دراسات في الرواية الفلسطينية المعاصرة)، د. حماد أبو شاويش وآخرون، الملتقى الفكري للأكاديميين في قطاع غزة، ط1، 2006م.
- 24- التحولات الفلسطينية، عمر حلمي الغول، دار الوسيم، ط1، دمشق، 1992م.
- 25- الترميز في الفن القصصي العراقي الحديث، د. صالح هويدي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1989م.
- 26- التقاليد والمعتقدات والحرف الشعبية في فلسطين قبل 1948، د. فكتور سحاب، دار الحمراء، ط1، بيروت، 1993م.
- 27- جماليات القصة القصيرة (دراسات نصية)، د. حسين علي محمد، الشركة العربية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 1996م.
- 28- جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين والأتراك، زياد أبو غنيمة، دار الفرقان، ط2، عمان، 1986م.
- 29- حرب فلسطين إعادة كتابة تاريخ 1948م، إيوجين روحان، وآفي شليم، ترجمة: ناصر عفيفي، مؤسسة روز اليوسف، القاهرة، (د.ت).
- 30- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1982م.
- 31- الحصيد في التراث الشعبي الفلسطيني، سليم عرفات المبيض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

- 32- حياة الأدب الفلسطيني الحديث (من أول النهضة.. حتى النكبة)، د. عبد الرحمن ياغي، منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية، ط2، 2001م.
- 33- خان يونس ماضيها وحاضرها، د. محمد علي عمر الفراء، دار الكرمل، ط1، عمان، الأردن، 1998م
- 34- خان يونس وشهداؤها (1956 المنبحة والصمود)، د. إحسان خليل الأغا، مركز فجر للطباعة والنشر، ط1، مصر الجديدة، 1997م.
- 35- دراسات في الأدب الفلسطيني، مجموعة من المؤلفين، منشورات جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، 2003م.
- 36- دراسات نقدية في الأدب الفلسطيني المحلي، عزت الغزاوي وآخرون، دار الكاتب، ط1، سميراميس، القدس، 1993م.
- 37- دراسة في لغة الشعر، رجاء عيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1979م.
- 38- ديوان الأساطير (الكتاب الثاني) الآلهة والبشر، فاروق خورشيد، ترجمة: قاسم الشواف، ط1، دار الساقى، 1977م.
- 39- ذيل مرآة الزمان، أبو الحسين على بن أبي عبد الله محمد اليونيني، حيدر أباد، ط1، 1991م.
- 40- الرمزية، تشارلز تشادويك، ترجمة: نسيم إبراهيم يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992م.
- 41- الرواية في الأدب الفلسطيني، أحمد أبو مطر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (د.ت.).
- 42- الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية (1952، 1982)، على محمد عودة، مكتبة دار المنارة، ط2، 1997م.
- 43- الزمن والسرد القصصي في الرواية الفلسطينية المعاصرة، د. محمد أيوب، دار السندباد، ط1، الدقي، القاهرة، 2001م.
- 44- سعيد على زين الدين (المحامي الثائر والمربي الشاعر 1894 - 1959م)، سليم عرفات المبيض، غزة، فلسطين، 2011م.

- 45- شعب فلسطين أمام التآمر البريطاني والكيد الصهيوني، حسني أدهم جرار، دار الفرقان، (د.ط)، عمان، (د.ت).
- 46- الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين، عبد الرحمن الكيالي، المؤسسة العربية، بيروت، 1982م.
- 47- الطريق إلى الخيمة الأخرى، (دراسة في أعمال غسان كنفاني)، د. رضوى عاشور، دار الآداب، بيروت، (د.ت).
- 48- عن بناء القصيدة العربية الحديثة، علي عشري زايد، مكتبة دار العلوم، ط2، القاهرة، 1979م.
- 49- عناصر الإبداع الفني في شعر عثمان أبو غربية، د. نبيل خالد أبو علي، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ط1، القدس، 1999م.
- 50- فتوح البلدان، البلاذري، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع، المعارف، (د.ط)، بيروت، 1987م.
- 51- فلسطين (الشعب والحضارة والتاريخ السياسي)، بيان نويهض الحوت، دار الاستقلال، ط1، بيروت، 1991م.
- 52- فلسطين أرض الحضارات، شوقي شعت، الأوائل، ط1، دمشق، (د.ت).
- 53- فلسطين أرض الرسائل السماوية، روجيه غارودي، ترجمة: قصي أناسي، وراشيل واكيم، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، دمشق، 1991م.
- 54- فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، عيسى السفري، مكتبة فلسطين الجديدة، يافا، 1937م.
- 55- فلسطين في الرواية العربية، صالح أبو أصبع، مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت، 1975م.
- 56- فلسطين قبل الضياع، واصف عبوشي، ترجمة: علي الجرباوي، رياض الريس للكتب والنشر، (د.ط)، (د.ت).
- 57- فلسطين والانتداب البريطاني، كامل محمود خلة، المنشأة العامة، ط2، طرابلس، 1982م.
- 58- فلسطينيات، مجموعة من الباحثين، إشراف: أنيس صايغ، م.ت.ف، مركز الأبحاث، بيروت، 1968م.

- 59- فن القصة، د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، دار الشروق، عمان، ط1، 1996م.
- 60- في رحاب التفسير، عبد الحميد كشك، المكتب المصري الحديث، القاهرة، (د.ت).
- 61- في ضفاف السرد (دراسات)، زكي العيلة، دار الماجد، ط1، رام الله، 2006م.
- 62- في فقه الصراع على القدس وفلسطين د. محمد عمارة، دار الشروق، ط1، القاهرة، 2005م.
- 63- في مرآة الثقافة الفلسطينية، د. نبيل خالد أبو علي، دار المقداد، ط1، غزة، 2004م.
- 64- في نقد الأدب الفلسطيني، د. نبيل خالد أبو علي، دار المقداد، ط1، غزة، 2001م.
- 65- القدس في الفترة الإسلامية الأولى، عبد العزيز الدوري، مطبعة الجامعة الأردنية، (د.ط)، عمان، 1992م.
- 66- القدس، عبد الحميد الكاتب، دار الشروق، (د.ط)، القاهرة، (د.ت).
- 67- القصة القصيرة دراسات ومختارات، الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط6، القاهرة، 1992م.
- 68- القصة القصيرة في الضفة وقطاع غزة (1967-1981)، عادل الأسطة، الضفة، فلسطين، (د.ت).
- 69- القضية الفلسطينية الأرض والإنسان، شحادة الناطور، دار الأمل، إربد، 1995م.
- 70- قطوف من الأدب العربي، د. نبيل خالد أبو علي، دار المقداد، غزة، 2005م.
- 71- كي لا ننسى، وليد الخالدي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، بيروت، 1997م.
- 72- المجلد.. عسقلان (تاريخ وحضارة)، محمود صالحة، المركز القومي للدراسات والتوثيق، ط1، غزة، 1999م.
- 73- مجنون التراب (دراسة في شعر وفكر محمود درويش)، شاكر النابلسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (د.ت).
- 74- المدخل إلى القضية الفلسطينية، جواد الحمد وآخرون، مركز دراسات الشرق الأوسط، ط3، عمان، 1998م.
- 75- مذكرات وتسجيلات محمد عزة دروزة، صامد، ط1، دمشق، 1986م.

- 76- مراجعات ومتابعات في الرواية والقصة الفلسطينية، شمس الدين موسى، مطبوعات وزارة الثقافة، ط1، فلسطين، 1999م.
- 77- مسيرة الشعب الفلسطيني وآفاق الصراع العربي الإسرائيلي في الثمانينات، أحمد صدقي الدجاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، بيروت، 1980م.
- 78- معجم ديانات وأساطير العالم، د. إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، (د.ت.).
- 79- من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية، د. عبد الوهاب المسيري، دار الفكر، ط1، دمشق، 2002م.
- 80- من التشرذم إلى الدولة، د. إبراهيم يحيى الشهابي، اتحاد الكتاب العرب، ط1، 1990م.
- 81- موسوعة التاريخ الإسلامي - العصر العثماني، د. مفيد الزبيدي، دار أسامة، عمان، 2003م.
- 82- الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، مجموعة من الأساتذة، هيئة الموسوعة الفلسطينية، ط1، دمشق، 1984م.
- 83- الموسوعة الفلسطينية، دراسات الحضارة، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، ط1، بيروت، 1990م.
- 84- موسوعة تاريخ اليهود، محمود شاکر، دار أسامة للنشر، ط1، عمان، 2003م.
- 85- موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين، أحمد عمر شاهين، منشورات المركز القومي للدراسات والتوثيق، ط2، غزة، 2000م.
- 86- نظرية الأدب، رينيه ويلك، أوستن وارين، ترجمة: محيي الدين صبح، مراجعة: د. حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987م.
- 87- وثائق فلسطين من العهدة العمرية إلى وعد بلفور (1335هـ - 1917م)، فتحي نصار، الدار الثقافية للنشر، ط1، القاهرة، 2003م.

المجلات:

- 1- مجلة جامعة عبد العزيز: العلوم التربوية، المجلد 11، جدة، 1998م.

المواقع الإلكترونية:

- <http://www.sh-aladab.com> -1
- <http://www.maannews.net> -2
- <http://www.alnooe.se/> -3
- <http://www.alhewar.org> -4
- <http://fis2020.maktoobbblog.com> -5
- <http://www.alsh3r.com> -6
- <http://www.alexagn.com> -7

ملخص الدراسة باللغة العربية

ملخص الدراسة

العنوان: "الأرض في أدب غريب عسقلاني القصصي"

يتناول هذا البحث دراسة الأرض في أدب غريب عسقلاني القصصي، حيث يمثل موضوع الأرض جانباً مهماً من الجوانب التي تناولها عسقلاني ورسم ملامح الحياة تحت نير الاحتلال، وكان له ملامح إبداعية متعددة، ذات دلالات مختلفة. وتتكون هذه الدراسة التحليلية من تمهيد ومقدمة وثلاثة فصول وخاتمة:

التمهيد:

وعنوانه: **الأرض محور الصراع وسبب النعيم والشقاء**، حيث تناولت فيه عرضاً للأحداث التاريخية التي حدثت في فلسطين.

المقدمة:

تناولت فيها التعريف بموضوع الدراسة ومبرراتها ومنهج البحث فيها، ثم عرض لأقسام الرسالة.

الفصل الأول:

وعنوانه **الأرض في أتون الصراع**، وجعلته في أربعة محاور، الأول عن الأرض الفلسطينية في سجل الحضارة والتاريخ. وتناولت في المحور الثاني الأرض الفلسطينية قبل حلول النكبة. وفي المحور الثالث الأرض الفلسطينية بعد حلول النكبة. أما المحور الرابع فأبرزت فيه أرض الشتات والمخيمات ونثراتها.

الفصل الثاني:

وعنوانه **الأرض ودلالاتها الرمزية المتعددة العرض والعطاء والذات والأم والخليلة** إضافة إلى دلالات أخرى.

الفصل الثالث:

وعنوانه **الأرض والتقاليد الفلسطينية** وجاء في أربعة محاور، الأول عن المواسم وتقاليدها، والثاني عن الأفراح والأتراح، والثالث عن الأعياد والمناسبات، أما الرابع عن المهن والطقوس الشعبية.

الخاتمة:

وتظهر فيها أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها البحث.

ملخص الدراسة باللغة الإنجليزية

Abstract

Title: " Land with the fiction literature of Ghareeb Asqalany "An Analytical Study".

This study deals with land as one of the aspects addressed by Asqalany and drew the features of life under occupation".

It also has multiple innovative features with various connotations.

This analytical study consist of a preface, an introduction, three chapters and a conclusion.

Preface:

Title: land is the main conflict and the cause of bliss and misery this study dealt with the historical events that place in Palestine.

Introduction:

Gives a definition for the subject of this study, its justifications in addition to the method of the research-then and introductory presentation for its sections.

Chapter I:

Title: Land in the midst of conflict this chapter is in four parts.

The first is about the Palestinian Land in the record of history and civilization.

Palestine before "Al-Nakba" is presented in the second part while the this part presented Palestine after "Al-Nakba" and the last part highlighted the land of diaspora, the Palestinian camps and its results.

Chapter II

Title: Land and its symbolized indications such as honor, Benevolence , mother , friend and many other indications.

Chapter III

Title: Palestine : "Land of Traditions"

The first part is about the seasons and traditions, the second talks about wedding of condolence occasions, the third is about feasts and festivals and the fourth is about jobs and rituals.

Conclusion:

The most important findings and recommendations.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
ج	إهداء
د	شكر
1	المقدمة
5	التمهيد
20	الفصل الأول: الأرض في أتون الصراع
21	أولاً: الأرض الفلسطينية في سجل الحضارة والتاريخ
26	ثانياً: الأرض الفلسطينية قبل حلول النكبة
34	ثالثاً: الأرض الفلسطينية بعد حلول النكبة
44	رابعاً: أرض الشتات والمخيمات ونثرها
60	الفصل الثاني: الأرض ودلالاتها الرمزية
63	1. العرض
64	2. العطاء
66	3. الذات
67	4. الأم والخليلة
76	دلالات أخرى
76	1. المأوى
76	2. التجذر
81	3. الأمانة
83	4. الماضي والتاريخ
84	5. التراث
86	الفصل الثالث: الأرض والتقاليد الفلسطينية
88	أولاً: المواسم والأعياد
91	ثانياً: الأفراح والأتراح
99	ثالثاً: مهن وطقوس شعبية
109	كلمة لابد منها: القيمة الفنية والأدبية لنتاج عسقلاني القصصي
109	القيمة الفنية

الصفحة	الموضوع
117	القيمة الأدبية
121	الخاتمة
124	فهرس المصادر والمراجع
134	الملخص باللغة العربية
136	الملخص باللغة الإنجليزية
138	فهرس الموضوعات